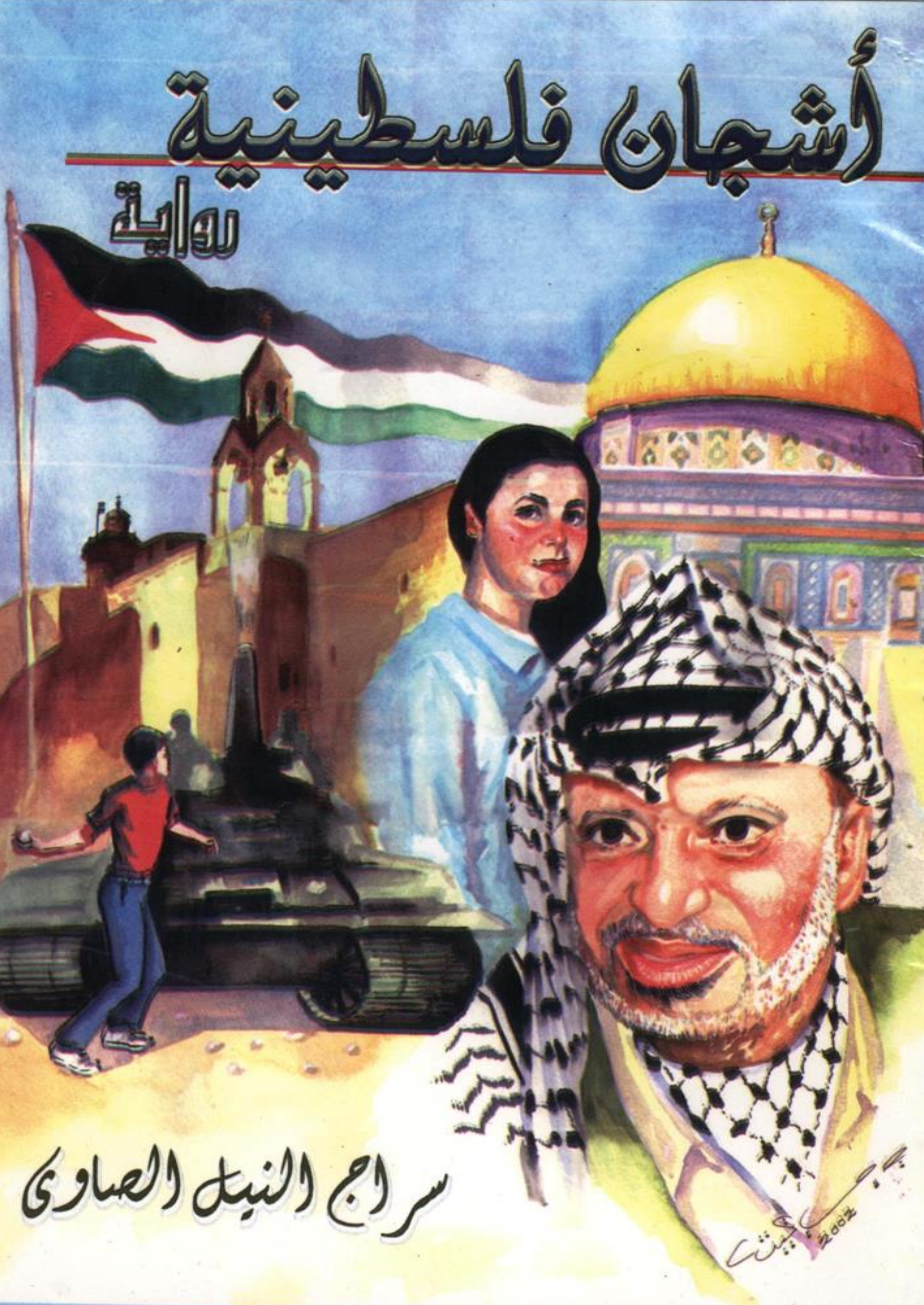

أشجان فلسطينية
رواية
سراج النيل الصاوى

رواية

أشجان فلسطينية

سراج النيل الصاوى

إهـداء

إلى

النبت الصغير من أبناء هذا الجيل ، بأرضنا العربية ، الذين كتبت من أجلهم بالأمس روايتى "وليمة مصرية" .

إليهم

أهدى اليوم روايتى

" أشجان فلسطينية "

آملا

أن يمد الله فى عمرى لأقدم لهم فى الغد القريب " وليمة عربية " . فهم الأمل والمستقبل بإذن الله .

سراج النيل الصاوى

١

ما أن تدخل انتصار حجرة مدرسى التاريخ و الجغرافيا ، بالطابق الثالث بمدرستها ، عقب طابور الصباح ، إلاّ و تلقى بجسدها الممتلئ ، على مقعدها الخشبى ، محاولة التقاط أنفاسها من عملية الصعود على درج السلم ، واضعة حقيبة يدها الجلد أمامها ، على المنضدة الطويلة ، التى تتقاسمها مع بعض زميلاتها المدرسات ، واللاتى كان بعضهن فى عجلة ، حيث سيتولون الشرح للتلميذات فى الحصة الأولى .

أما انتصار فعملها يقتصر اليوم على الحصة الرابعة والخامسة ورغم ذلك ، فالتعليمات المشددة لمديرة المدرسة ، هى ضرورة الحضور قبل الثامنة صباحاً لكل المدرسين والمدرسات بلا استثناء مع الالتزام بحضور طابور الصباح .

حملت أنيسة فراشة الطابق الثالث صينية عليها عدة أكواب من الشاى، وضعت إحداها أمام انتصار مع ابتسامة خبيثة، وهى تقول :
ـ ربع ملعقة سكر فقط ! .

سر الابتسامة الخبيثة أنها تعرف أن انتصار لن تقوى على الاستمرار فى عمل " الرجيم " ، إلاّ فى حدود عدة أيام قليلة ، ثم

تعدل عنه ، أومأت انتصار برأسها ، وهى تعقب قائلة : " شكراً " . ثم مدت يدها داخل حقيبتها وأخرجت كيساً من البلاستيك ... بداخله "ساندويتش " واحد من الجبن وخيارتين ، لقد عزمت منذ يومين فقط على تقليل وزنها عدة كيلوجرامات ، ولابد لها من ذلك فالكثير من ملابسها قد ضاقت ، خاصة الملابس الصيفية ، التى أخرجتها من الحقائب يوم الجمعة الماضى ؛ لغسلها وكيها استعداداً لارتدائها ، فاكتشفت حينئذ أنها لن تصلح إلا إذا نقص وزنها عدة كيلو جرامات ... وها هى تحاول جاهدة تنفيذ تعليمات " الرجيم " ، لا سيما إنها غير مستعدة مالياً لشراء ملابس جديدة ... فالأعباء كثيرة .

عقب انتهائها من أكل " الساندويتش " ، بدأت ترتشف الشاى ، مذاقه غير مستحب لها ، من قبل كانت تتذوقه بملعقتين من السكر أعادت كيس البلاستيك وبداخله الخيارتان إلى الحقيبة ، ستأكلهما حسب تعليمات " الرجيم " وقت الظهيرة ، لمحت جريدة " الأهرام " مطوية على منضدة الأستاذ حماد ، الذى انهمك فى تصحيح بعض الكراسات ، هو الرجل الوحيد فى الحجرة بين سبع مدرسات ، وهو الوحيد بينهن أيضاً الذى يحمل جريدة معه ، لا يقرأها إلا فى نهاية اليوم الدراسى .

توجهت إليه انتصار ، مستأذنة منه فى الإطلاع عليها ، كثيراً ما تفعل ذلك هى و زميلاتها ، والرجل يرحب ، ولا يتضرر ، خاصة أن العلاقة بين مدرسى هذه الحجرة يسودها التفاهم والاحترام المتبادل ،

و إن كان ـ فى بعض الأحيان ـ يشتد الجدل والنقاش بينهم فى عدة موضوعات ، خاصة بين الأستاذ حماد ، الذى يمقت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية مقتاً شديداً ، ويحنق عليها ، وبين وفيّة مدرسة الجغرافيا ، التى عاشت بأمريكا عدة سنوات بصحبة زوجها ، عند دراسته للدكتوراه ، وبهرت بتقدمها التكنولوجى ، وحضارتها ، وديمقراطيتها فى تداول السلطة ، وكثيراً ما تشيد هى بذلك .

أخذت انتصار تتصفح الجريدة بسرعة وهى ترتشف الشاى من الكوب ببطء ، تطلع على العناوين الرئيسية فقط ، فهى بعد عودتها للمنزل ستعيد قراءتها بإمعان مع بعض الجرائد الأخرى التى يحملها زوجها ، قرأت عناوين الصفحة الأولى[١]:

" بوش يطلب من شارون فى اتصال هاتفى سحب قواته من الأراضى الفلسطينية ".

" قصف هستيرى إسرائيلى لمخيم جنين ومنع صلاة الأحد بكنيسة المهد لأول مرة فى التاريخ " .

" قوات الاحتلال تعدم ٥ فلسطينيين أمام ذويهم وتهدم مسجداً وتحرق المصاحف والكتب الدينية ".

" المظاهرات الشعبية تتصاعد عالمياً ضد إسرائيل ـ عشرات الألوف يتظاهرون فى روما وباريس ونيويورك وبرن وسيدنى وبودابست " .

ثم قلبت الصفحة ، توقفت أمام ثلاث صور بالألوان ، لألوف من المتظاهرين يجتاحون الشوارع .

---

[١] الأهرام ، يوم الاثنين ٨ إبريل ٢٠٠٢م ، العدد ٤٢١٢٦ ، السنة ١٢٦

قرأت أسفل الصورة الأولى تعليقاً :

" مظاهرات الاحتجاج التى اجتاحت شوارع العاصمة جاكرتا ، حيث حمل المتظاهرون الأعلام الفلسطينية ، وأشعلوا النيران فى العلم الإسرائيلى وهتفوا بشعارات معادية للولايات المتحدة وإسرائيل " .

كان تعليق الجريدة على الصورة الثانية :

" عشرات الإسرائيليين يتظاهرون أمام مقر وزارة الدفاع بتل أبيب مطالبين بإحلال السلام فى المنطقة وخروج الجيش الإسرائيلى من الأراضى الفلسطينية والعودة للمفاوضات " .

أما الصورة الثالثة ، فقد كتبت الجريدة تعليقاً عليها هو :

" متظاهرون أتراك فى مدينة اسطنبول يحملون لافتات تقول (لا) للممارسات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين " .

لم تستطع مقاومة رغبتها لمعرفة المزيد عن تلك المظاهرات قرأت على غير عادتها كل ما كتب عنها ، بالرغم من أنها شاهدت بالأمس العديد من القنوات المحلية والفضائيات فى التليفزيون متابعة لأخبار الانتفاضة ... تنهدت وتمنت لو كانت هى من بين هؤلاء المتظاهرين ... شعرت برغبة عارمة فى أن تصرخ ضد الصهاينة ، عاودت تقليب الصفحات الأخرى سريعاً ، توقفت أمام صفحة " شباب وتعليم " إنها دائماً تقرأ كل مابها ، فهى مخصصة للتعليم ،

وهـو الأمر الذى يخصها بالقطع .. قرأت كلمة المشرف على الصفحة[٢]، إنـها تشيد بمظاهرات الطلاب ، استهلها بقوله :
" أكدت انتفاضة طلاب الجامعات المصرية على امتداد مصر كلها أن شباب مصر بخير ، و أن الأمل فى المستقبل يتجسد فى هؤلاء الشباب الذين مازالت دماؤهم حرة وحارة ، ولم يتحول الدم فى عروقهم إلى ماء بارد كما حدث لغيرهم " .

كانت على شفتيها ابتسامة رقيقة ، هى ابتسامة الرضاء ، فكل ما كتبه عبر عما فى داخلها ، أكملت قراءة المقال حتى نهايته ثم قلبت الصفحات .. ألقت نظرة سريعة على أسماء المتوفين .. لا تعرف أحداً منهم .. قبل أن تطوى الصحيفة قرأت برج الجدى بباب " حظك اليوم " ... " اليوم لتحقيق نجاحات عاطفية ومهنية " .

سخرت انتصار فى سرها ، متسائلة : " عاطفية ؟ .. كيف ؟ صلاح زوجى، وهو فى عمله الجديد ، مفتشاً للشرطة بمديرية الأمن، لا أشعر به إلا ليلاً هذه الأيام ، وهو يلقى بجسده بجوارى على السرير متعباً ؛ بسبب وجوده بالشوارع مع قواته ؛ خشية خروج الطلبة فى مظاهرات ، خارج أسوار كلياتهم ... لعل حظى اليوم يكون فى النجاحات المهنية " .

---

[٢] الأستاذ لبيب السباعى فى مقاله " كلمات جريئة " . جريدة الأهرام يوم الاثنين ٨ إبريل ٢٠٠٢ م ذات المصدر السابق .

رغم ثقافتها الواسعة ، ونشأتها فى عائلة متدينة ، فإنها تواظب على قراءة حظها اليومى .. وتصادف أن الكثير من النبؤات تحققت .. فكادت تؤمن بصحة أقوال المنجمين .

أخيراً رتبت صفحات الجريدة وطوتها ، ثم توجهت إلى مكتب الأستاذ حماد ، واضعة الجريدة فى هدوء أمامه ، حتى لا تشغله عن عمله فى تصحيح الكراسات ، لكنه ترك القلم الأحمر ، ونظر إليها قائلاً :

ـ أمريكا سابت إسرائيل تنهش فى لحم العرب ...

ـ معك حق ... وهو دور إسرائيل .

علقت باقتضاب ، وهى عائدة لمقعدها ، لم تشأ أن تطيل الحديث معه ، فهى تريد أن تنجز ما لديها اليوم من عمل إضافى ، حيث كلفتها مديرة المدرسة برئاسة لجنة لشراء بعض اللوازم والكماليات من زنقة الستات بالمنشية ، أعطتها كشفاً دون به تلك الاحتياجات ، و مبلغاً من المال يكفى لتغطية أثمانها .

تنتاب انتصار الحيرة ، عن السبب الحقيقى فى اختيارها دائماً فى تلك اللجان ، هل الاختيار يرجع لامتلاكها تلك السيارة الصغيرة حيث تذهب بها مع أعضاء اللجنة وتعود بهم سريعاً ، دون أن يتعطل العمل بالمدرسة ،

أم أن السبب كما تذكره لها المديرة ، بأنها تشركها فى اللجان لحسن انتقائها للأشياء المراد شراؤها ، لذوقها الرفيع ورخص ثمنها ، مهما كان السبب ، فهى لا تستطيع أن تعصى للمديرة أمراً ، فضلاً عن حبها وتقديرها لها .

أخرجت من حقيبتها المفكرة التى تدون بها بعض ملاحظاتها الخاصة والعامة للتذكرة ، قرأت ما دون بصفحة هذا اليوم ... كان عن قرب وصول خالتها إيمان من سوريا ، هى و زوجها الدكتور ملحم ، وابنتهما الدكتورة أصالة و الحفيدة نهى ، مع تدوينها "ضرورة الحجز لهم اليوم بالفندق" ، و أسفل " اليوم " عدة خطوط للأهمية .

كانت تنوى أن تكلف زوجها بمهمة الحجز ، لكنها عدلت وقررت أن تتولى هى تنفيذ المهمة ، فالفندق يقع فى طريقها إلى المنشية ، حيث يطل على البحر بمحطة الرمل ... أمسكت قلماً وأضافت فى نفس الصفحة بالمفكرة " لا يزال الفلسطينيون فى جنين يقاومون الحصار والعدوان الإسرائيلى ببسالة ... يارب انصرهم " ... وضعت المفكرة بحقيبتها التى أمسكت بها ، ثم نهضت خارجة مودعة من بقى بالحجرة ، بعدها اصطحبت معها فى طريقها عضوتى اللجنة ، بعد إحاطة المديرة ، وتوجهن جميعاً إلى سيارتها الزرقاء الصغيرة التى تقف أمام باب المدرسة .

جلست بجوار انتصار إيزيس موظفة الشئون المالية ، أما سمية مدرسة التربية الرياضية ، فقد استقرت فى المقعد الخلفى ، مكانها المفضل بالسيارة بعيداً عن ربط جسدها بحزام الأمان الذى لا تطيقه. اختارت انتصار أن تسلك فى الذهاب إلى المنشية طريق الجيش ، وهو طريق الكورنيش ... فالجو اليوم صحو... والسماء صافية ... فيمتعن نظرهن برؤية موجات البحر الهادئة ، وهى تلامس الشط بحنان المشتاق ... ويشاهدن طيور النورس ، فى محاولاتها للحصول على طعامها ، بالانقضاض على فرائسها من أسماك البحر ... وهو المنظر الذى كان ولا يزال يأسر لب انتصار ، ويذكرها دائماً بطفولتها حينما كانت تقف وهى طفلة صغيرة ، بشرفة مسكنها بالإبراهيمية ، التى تطل على البحر مباشرة ، بالطابق الخامس ، تتابع النوارس .

وليعرفن أيضاً ما تم إنجازه من توسعة بالطريق فى مرحلته الأخيرة ، بعد أن تم اكتماله منذ أيام قليلة فقط ، حيث كان العمل قائماً على قدم وساق ، ليلاً ونهاراً ، استعداداً لافتتاح مكتبة الإسكندرية فى هذا الشهر .

بدأ الحديث بالسيارة بحوار دار بين انتصار وإيزيس ... سألتها انتصار ، مداعبة :

ـ كيف حال أوزوريس اليوم ؟

ـ أوزوريس ... من أوزوريس هذا ؟

ـ زوجك .

ـ زوجى ؟ ... زوجى اسمه ميخائيل ... هل نسيتى ؟

ـ آسفة ... اعتقدت أنكِ إيزيس معبودة قدماء المصريين ، زوجة أوزوريس .

ابتسمت إيزيس ابتسامة خفيف قائلة :

ـ نسيت أنكِ مدرسة تاريخ ... لقد كنت تلميذة بليدة فى مادة التاريخ

بعدها وجهت انتصار حديثها لزميلتيها ... قالت :

ـ اليوم لا وقت للتسكع بالزنقة .. عقب الشراء سنعود فوراً ؛ لأننى سأتوقف بعض الوقت بفندق بمحطة الرمل لأحجز لخالتى المقيمة فى سوريا هى وأسرتها .

استفسرت سمية منها ... سألتها :

ـ لكِ خالة تقيم فى سوريا ؟

ـ تزوجت فى زمن الوحدة مع سوريا من طبيب سورى ... لما انفصلت سوريا عن مصر ... ازدادت هى وزوجها تماسكاً ... لهما ولد وبنت ... ولهما أحفاد أيضاً ... أنا فى شوق لرؤية خالتى وأسرتها .

مطت إيزيس شفتيها متعجبة ، وسألت انتصار :

ـ وأَيْشى[٣] لم الشامى على المغربى ؟

(٣) أَيْشى : أىّ شئ .

سمعت انتصار استفسار إيزيس ، فانطلقت فى الحكى ، أسهبت فى سرد تاريخ العائلة ، حكت لهما كيف أن والدها الضابط البحرى ، عندما أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا ، انتدب مع مجموعة من الضباط المصريين للعمل بميناء اللاذقية ، حيث سافرت معه والدتها التى كانت حاملاً فى شقيقها أيمن ، كان عمر انتصار . وقتها . يتجاوز الثلاث سنوات بقليل ، استأجر والدها الطابق العلوى فى فيلا مكونة من طابقين ، و أقام فى الطابق الأرضى أصحابها ، ذكرت والدتها لها بأنهم عاشوا مع أصحاب الفيلا كأسرة واحدة متحابة ، كان للأسرة السورية ابن طبيب تخرج حديثاً ، ما أن شاهد خالتها إيمان عندما حضرت لزيارة شقيقتها فى الأجازة الصيفية ، إلاّ وأعجب بها ، قبل أن تنتهى الأجازة طلب يدها ، و تمت الموافقة ، فقد بادلته خالتها شعوره ، أسرته من العائلات الطيبة المعروفة باللاذقية .

احتفلا بعقد قرانهما بمصر الجديدة ثم سافرا للإسكندرية ، حيث أقاما الأيام الأولى من شهر العسل بالفندق المطل على البحر يتمنيان أن يقيما بنفس الحجرة لاستعادة الذكريات .

صمتت انتصار فترة ، ثم واصلت حكيها ، ومضيفة بأن خالتها أنجبت إسلام ، الذى يعمل بالسلك الدبلوماسى السورى بدول الخليج، والدكتورة أصالة ، وهى مدرسة بكلية الآداب بجامعة دمشق ، وسبق لها حضور عدة مؤتمرات بالقاهرة ، لها ابنة وحيدة اسمها نهى فى السادسة عشر ، فى المرحلة الثانوية ، هى المرة الأولى التى تحضر فيها إلى مصر .

كفت انتصار عن الحكى ، استرعى انتباهها وجود سيارات ولوارى للشرطة ، وجنود للأمن المركزى فى تجمعات كبيرة ،
بمنطقة الشاطبى .. بالكورنيش وبشارع قناة السويس وقرب مكتبة الإسكندرية ... وبتقاطعات الشوارع المحيطة بمجمع الكليات ... بحثت وهى تقود السيارة ، عن زوجها العقيد صلاح بين الضباط المنتشرين مع قواتهم .. لكن لم تجده بينهم .

استغربت سمية المشهد ، سألت بعفوية :

ـ كل هذه القوات ؟ لماذا ؟

أجابتها انتصار على الفور :

ـ الخوف من خروج الطلبة إلى الشوارع ، ويندس المخربون بينهم .

ردت سمية ، غير مقتنعة :

ـ مظاهرات العالم كلها كانت فى الشوارع ... هل نحن فى مصر أقل وعياً منهم ؟

أدارت انتصار راديو السيارة ، انبعث صوت فيروز شادياً :

" لأجلك يا مدينة الصلاة ... أصلى ...

لأجلك يا بهية المدائن ... أصلى ... يا قدس ... ".

فى صمت خاشع استمعن لهذا الصوت الجميل ، قالت إيزيس بغضب ، مستنكرة ما حدث من إسرائيل :

ـ هل هذا يصح ؟ .. إسرائيل تمنع الصلاة فى كنيسة المهد .. لم يحدث هذا من قبل ! .. هل جُن شارون ؟

أضافت انتصار ، حانقة :

ـ هدموا مسجداً أيضاً ، وحرقوا المصاحف ...

تصل السيارة إلى ميدان المنشية بالقرب من زنقة الستات ... يتركن السيارة ويتجهن الثلاثة لشراء احتياجات المدرسة ... حيث تبتلعهن الحارات الضيقة .

٢

حرصت انتصار على العودة ، فى وقت مناسب قبل بدء الحصة الرابعة ، وكان لها ما حرصت عليه . فها هى تدخل باب المدرسة الحديدى مع زميلتيها ، بينما صياح التلميذات أثناء لعبهن وجريهن يملأ جنبات حوش المدرسة الصغير ، إنها الفسحة الصغيرة التى تعقب انتهاء الحصص الثلاث الأولى ، وهو الوقت الجميل المحبب لكل التلاميذ والتلميذات فى مدارسهم ، حيث يقضون راحتهم باستمتاع بعد عناء الدراسة .

أسرعن الثلاثة بالتوجه إلى حجرة المديرة . تحمل إيزيس ماتم شراؤه من احتياجات اللمسات الأخيرة لحفل المدرسة الذى قرب موعده ، طرقن الباب قبل فتحه ، لم تكن المديرة بمفردها بالحجرة ، كانت تقف أمامها وكيلة المدرسة الأستاذة ابتسام ، وبجوارها متعهد المقصف الحاج سالم ، الذى كان يبدو على وجهه الضيق والتبرم ، دخلن الثلاثة الحجرة ، وقفن مستمعات للمتعهد ، وهو يستعطف المديرة بقوله :

ـ يا سيدتى ... أستحلفك بالله ... هل ترضين أن يخرب بيتى ؟ سيقطع عيشى وعيش من يعمل معى بالمقصف .

لم تعر المديرة اهتماماً لدخول الثلاثة ، تركيزها كان فى المشكلة التى أمامها ، وجهها ينبئ عن حزم وصرامة ، قالت :

ـ و لِمَ إصرارك على بيع السلع الأمريكية ؟ ... استبدلها بمنتجات مصرية ، أو حتى من دول صديقة ... وسوف تسلم إذن من تيار المقاطعة .

ـ يا سيدتى أمريكا دولة صديقة .. إنها تمنحنا المعونات .

ـ لن ندخل يا حاج سالم فى جدل سياسى ... ماذا تقصد من شكواك باختصار ؟

هكذا كان رد المديرة عليه وهى تعدل بأصابعها من وضع النظارة .

أجابها المتعهد ، مظهراً المسكنة :

ـ أقصد شيئاً بسيطاً ... أن تأمرى بإبعاد التلميذات اللاتى يقفن أمام المقصف فى وقت الفسحة ، وينصحن التلميذات بعدم شراء السلع الأمريكية من مياه غازية وخلافه .. تتزعمهن التلميذة عنايات المراكبى وزميلتها إحسان .

سألته المديرة :

ـ هل تهددان أو تعتديان على من تخالفهما ؟

ـ لأ ... لكن تأثيرهما قوى على التلميذات ... زجاجات المياه الغازية التى يقاطعونها بقيت على حالها بالمقصف كما هى .. لم أبع منها زجاجة واحدة من يومين .

اعتدلت المديرة فى جلستها ، ثم سألته :

ـ و لماذا يا حاج سالم لا تستبدلها بعصائر أو مشروبات صناعة وطنية ؟

بعد فترة صمت رد عليها المتعهد بخبث ؛ ليهددها بأنه سيعجز عن تسديد إيجار المقصف :

ـ سأراعى ذلك ... لكن أرجو تدخلك الآن ... لن أستطيع تسديد إيجار المقصف لكم .

أجابته المديرة بحزمها المعروف عنها و بسرعة .. قالت :

ـ بالنسبة لتسديد الإيجار ... بيننا وبينك عقد مكتوب .. به شروط جزائية فى حالات التأخير أو عدم السداد ... وفيه ضمان لحق المدرسة .. أنت تعلم ذلك جيداً .

كان ردها الحازم عليه له وقع الصاعقة ، فصمت برهة .. ثم سألها متوسلاً :

ـ وما العمل الآن يا سيدتى ؟

كانت إجابتها جاهزة .. أجابته بثقة :

ـ عليك أن تستبدل كل ما هو صناعة أمريكية بمثيله الوطنى ... وسوف تقبل عليها التلميذات .. عندئذ ستربح يا حاج سالم ... وتسدد الإيجار فى موعده .

عندئذ شاركت الأستاذة ابتسام فى الحوار الدائر بينهما ، ووجهت حديثها للمديرة قائلة :

ـ قلت له مثل ذلك ، لكنه لم يقتنع وطلب مقابلة سيادتك .

كان هذا نهاية للحوار عن مشكلة مقاطعة التلميذات لبعض المنتجات الأمريكية التى تباع بالمقصف . خرجت وكيلة المدرسة وخلفها المتعهد الذى بدا عليه الحزن ، و ما أن اغلق الباب حتى انفرجت أسارير وجه المديرة ، ودعت الثلاثة للجلوس ، إنها فى شغف لمعرفة ماذا فعلن فى مأمورية الشراء هذه ، لكن انتصار أصرت أن تشارك بالرأى فى المشهد الذى رأته منذ قليل ، وسمعت حواره بين المديرة والمتعهد .. قالت للمديرة ، وهى تنظر لها باحترام وإعجاب :

ـ يا حضرة المديرة .. موقفك هذا من المتعهد ، هو درس عملى فى الوطنية التى ندرسها نظرياً للتلميذات الصغيرات ...

عقبت المديرة ، وابتسامة رقيقة على شفتيها ، قائلة :

ـ المفترض أن نكون نحن القدوة للتلميذات ، ونطلب منهن مقاطعة تلك السلع .. لكن المفاجأة .. أن هذا يحدث بمبادرات ذاتية من التلميذات .

وتشارك سمية فى الحديث ، بقولها :

ـ ابنتى تفعل ذلك أيضاً .. أصبحت لا تشترى المنتجات الأمريكية هى وصديقاتها ، ولا يذهبن لتلك المطاعم الأمريكية الشهيرة .

أيدتها المديرة فى رأيها ، قائلة :

ـ فعلاً ... أولادى قاطعوا الذهاب إلى المطاعم الأمريكية الشهيرة أيضاً ، بل إن ابنى سعد يراقب ما نشتريه بالمنزل من مساحيق للغسيل ، وقد غيرنا النوع الذى كنا نستعمله ، حيث علمنا بأن الشركة التى تنتجه إسرائيلية .

وتتدخل إيزيس بدورها فى الحديث ، بقولها :

ـ إنها فرصة لرجال الأعمال المصريين ، لينتهزوا هذا الشعور الوطنى ، ويقدموا لنا البدائل الجيدة .

وقفت المديرة ، وهى تشير بيدها لهن ، قائلة :

ـ كفى ... كفى ... الوقت سوف يسرقنا ... فالحديث فى هذا الموضوع لن ينتهى .. يكفى أنه حديث كل البيوت الآن .. ماذا فعلتن ؟

وقفن الثلاثة عقب وقوف المديرة ، أخرجت إيزيس من أكياس البلاستيك التى تحملها الأشرطة الحريرية مختلفة الألوان لاستخدامها فى الاستعراض الرياضى ، وكذلك بعض الأقمشة الملونة الخفيفة كغطاء طويل لرأس التلميذات اللاتى سيقمن بدور الفلاحات ، ومناديل سكندرية للرأس للتلميذات اللاتى سيقمن بالرقص فى لوحة " بنات بحرى " ، وهى تلك المناديل التى اشتهرت بها الإسكندرية فى زنقة الستات.. بالإضافة لبالونات ودبابيس لتثبيت اللوحات وأشياء أخرى.

كانت الألوان جميلة وزاهية ، انبهرت بها المديرة التى كانت مدرسة للغة العربية قبل ذلك ، فعبرت عن إعجابها بقولها لهن :

ـ عشرةٌ على عشرةٍ ... ممتاز .

حكت سمية للمديرة بإيجاز كيف حصلت انتصار على تلك الأشياء بأسعار زهيدة ، رغم أن البائع كان قد حدد ثمناً مضاعفاً لما تم الشراء به .

ابتسمت المديرة ، وهى تهز رأسها قائلة :

ـ أنا أعلم جيداً بإمكانيات انتصار فى الشراء ... هى شاطرة [٤] فى الشراء ، وذوقها رفيع .

ثم تستدرك مضيفة :

ـ فى ذوقكن جميعاً ..لذا أحرص على مشاركتكن سوياً فى اللجان.

ثم توجه حديثها لإيزيس :

ـ إيزيس .. لن أذكرك بضرورة اتباع الإجراءات المالية السليمة.. لا أود أن يرصد التفتيش المالى أى ملحوظة مالية .

ردت عليها إيزيس بثقة :

ـ لقد حضروا أكثر من مرة ... لم يجدوا إلا بعض الملاحظات التافهة ؛ لكى يثبتوا قيامهم بالتفتيش .

قالت ذلك ، وهى تلملم ماتم شراؤه لتعيده بأكياس البلاستيك استعداداً للانصراف . قالت سمية مودعة المديرة :

---

(٤) الشاطر : الفهم المتصرف

ـ إحساسى بأن المدرسة ستفوز بجائزة المعرض الأولى هذا العام لقد بذلنا جهداً كبيراً فى إعداده .

عقبت المديرة بهدوء وعلى وجهها ابتسامة عريضة :

ـ نأمل ذلك .. شكراً لكن .

يخرجن الثلاثة ، وهن فى حالة رضاء من تقدير المديرة لهن .

تتجه إيزيس إلى مكتبها بالطابق الأرضى ، بينما توجهت سمية إلى حوش المدرسة لتلاحظ التلميذات أثناء الفسحة ، أما انتصار فقد أخذت تصعد درجات السلم ببطء ، إلى الطابق الثالث حيث توجد حجرتها ؛ لتستريح فى تلك الدقائق المتبقية من الفسحة استعداداً لدرس التاريخ .

ما أن قربت من حجرتها ، حتى وصل لسمعها نقاش يشارك فيه بعض المدرسات بالحجرة مع الأستاذ حماد ، ودون أن تستمع لهذا الحديث ، أيقنت انتصار أنه يدور حول أمريكا بين الأستاذ حماد وبين وفيّة مدرسة الجغرافيا ، التى تدافع عن الولايات المتحدة ، حيث قضت سنوات بها بصحبة زوجها الدكتور صفوت أستاذ الجامعة ... قال الأستاذ حماد مخاطباً وفيّة :

ـ يا سيدتى .. أنت بُهِرتِ بالحضارة المادية .. وماذا عن الجانب الأخلاقى ؟ .. ألا توجد عنصرية فى أمريكا حتى الآن رغم وجود القوانين التى تمنع ذلك بين السود والبيض؟ .. ألم تنشأ دولتهم على ظلمهم لأصحاب الأرض من الهنود الحمر ؟

لم تمهله وفيّة ليكمل حديثه ، قاطعته قائلة :

ـ أنت تتحدث عن الماضى .... كل مواطن الآن فى أمريكا له كل الحقوق كاملة ... والحياة فيها سهلة وميسورة ...

أرادت انتصار أن تفض هذا الاشتباك بين زميلتها وفيّة وبين الأستاذ حماد ، وهو الاشتباك الذى يتكرر بينهما كثيراً فى فترات الراحة ، ويدور حول أمريكا وأطماعها المستقبلية فى المنطقة العربية وفى العالم أجمع . يساعد على ذلك أن الأستاذ حماد يقوم بجمع المادة العلمية بكل ما يتعلق بالسياسة الأمريكية الحديثة ، حيث يستعد لتقديمها فى بحث فى دراساته العليا لنيل الماجستير .. قالت انتصار ، موجهة حديثها له :

ـ عندى خبر سيسعدك يا أستاذ حماد !

على الفور توقف الجميع عن الحديث .. وعم الهدوء الحجرة واتجهت أنظار كل من بها إلى انتصار .. لمعرفة الخبر .

قال حماد متلهفاً :

ـ ما هو ؟

ـ كنت بمكتب المديرة الآن .. وجدت متعهد المقصف عندها يشكو من بعض التلميذات اللاتى يحرضن الأخريات بالامتناع عن شراء البضائع الأمريكية .. الرجل اشتكى بأنه لم يبع زجاجة مياه غازية واحدة من الماركات الأمريكية منذ يومين .. جميع التلميذات استجبن لنداء المقاطعة .

ظهرت السعادة على وجه الأستاذ حماد ، وابتسم ابتسامة عريضة حتى بانت أسنانه البيضاء فى وجهه شديد السمار ، ولوح بأصابع يده اليمنى علامة النصر ، موجهاً يده ناحية وفيّة ، التى لم تتمالك نفسها ، وهى تراه هكذا ، فقهقهت بصوت مرتفع ، بينما عبر حماد بلسانه لانتصار قائلاً :

- هذا الخبر أسعدنى حقاً ... إنه بداية الصحوة .

ينطلق جرس المدرسة معلناً انتهاء الفسحة ، وبدء الحصة الرابعة ، فيتوقف الحديث لحظات ، بينما تغادر انتصار الحجرة .

٣

مشت انتصار بخطى واثقة ، متجهة لقاعة الدراسة بالمبنى الملحق ، وما بين هبوط وصعود لدرج السلم الذى زينت جدرانه بلوحات ورسومات تعليمية ، تدافعت الذكريات وراء بعضها ، وهى تسير تلك الخطوات ، لعل أحاديث المقاطعة ، والشعور الوطنى المتصاعد ، أيقظ إحساسها بتلك الأيام الخوالى .. فتذكرت أيام طفولتها ، حينما كان الشعب المصرى كله يحتفل معها بعيد ميلادها حيث ولدت فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦م ... يوم عيد النصر... يوم انسحاب القوات الإنجليزية والفرنسية من بور سعيد، بعد عدوانها بعد تأميم القناة ؛ لذا أسماها والدها انتصار.

وقت احتفال أسرتها بعيد ميلادها بالإبراهيمية ، كانت آذان الكبار منهم تستمع من الراديو لخطاب عبد الناصر السنوى ببورسعيد . لقد شكلت تلك الأحداث خلفيتها الوطنية ، فضلاً عن أحاديث والديها لها ، عن شعورهما بالعزة والكرامة ، فى بدايات الثورة ، أثناء مقاومة الاستعمار الإنجليزى .

بل لن تنسى انتصار . وقد بدأت تعى جيداً الأحداث . حينما بلغت الحادية عشر من عمرها ، هبة الشعب المصرى وثورته فى أعقاب إعلان عبد الناصر قرار التنحى فى ٩ يونية ١٩٦٧م ،

عندما رفض الشعب الثائر قراره ، فى تحدٍ سافر للولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل ، حيث أحس الشعب بفطرته أن التنحى معناه الاعتراف بالهزيمة .. فكانت إرادة الشعب وقتها ..الصمود والثأر.
ولازالت الذكريات تتدافع سريعاً .. تذكرت انتصار أيضاً كيف أن الشعب المصرى بعدها ، لم يقف وحده فى الميدان ، فبعد عدة أيام استقبلت الخرطوم عبد الناصر استقبال الأبطال الفاتحين ، رغم الهزيمة العسكرية ؛ احتفى شعب السودان به ليشد من أزره ، وقفت الأمة العربية كلها وقفة رجل واحد .. شعوباً وحكومات ..
أصدرت قمة الخرطوم قرارات عملية دعمت صمود دول المواجهة ... منها تعلمت أن فى المحن يتكاتف الأشقاء العرب .

وتتدفق سريعاً ذكريات أخرى حزينة ، تتذكر انتصار يوم وفاة الزعيم ، حيث رأت الدموع فى عيون أسرتها جميعاً .. الشعب الحزين صمد .. هتفت الجموع فى جنازته تودعه ، واعدة بأنها ستكمل المسيرة ، مظاهرات الطلبة الصاخبة استمرت ولم تهدأ ؛ مطالبة بالثأر لاسترداد الأرض والكرامة .. يلبى السادات رغبة شعبه بقرار الحرب الشجاع . تتوالى فى ذاكرتها صور أخرى من حرب أكتوبر ١٩٧٣م .. سقوط خط بارليف المنيع .. رفرفة العلم المصرى فوق الضفة الشرقية للقناة .. أسرى الجنود الإسرائيليين .. ويظهر معدن الشعب المصرى الأصيل .. فهو يحرم التطبيع مع إسرائيل طالما شبر واحد من الأرض العربية تحتله إسرائيل رغم نصوص معاهدة السلام ،

كل تلك الصور تداعت سريعاً فى ذاكرتها وهى تقترب من قاعة الدرس للسنة الثانية بالمرحلة الثانوية .
لماذا تداعت كل تلك الصور الآن وهى متجهة لتلك القاعة ؟ هل لأنها تعلم بأن التلميذة عنايات المراكبى وزميلتها إحسان ، اللتين تتزعمان عملية المقاطعة للمنتجات الأمريكية بمقصف المدرسة من تلميذات تلك القاعة ؟ . ربما ... كم هى مشتاقة بفرح للاستماع لوجهات نظر تلك الزهرات اليانعة .. فهن الأمل للوطن .. فى غدٍ أكثر إشراقاً .

أحبت منذ طفولتها مهنة التدريس ، مهنة أمها ، لكنها اختارت بإرادتها أن تدرس التاريخ ؛ لأنها أحبت "أبلة" فاطمة مدرسة التاريخ بمدرستها الثانوية ، تعلمت منها كيف تربط بين أحداث الماضى البعيد بالأحداث المماثلة فى يومنا بأسلوب شائق ، كانت تقول لهم إن الشعوب المغلوبة على أمرها ، عليها أن تدرس وتعى تاريخها جيداً .. حيث العظات والعبر.. فأطماع الاستعمار واحدة وإن تبدلت صوره .. كانت " أبلة " فاطمة تعتز بمهنتها ، وكانت تفخر بأنها تؤدى رسالة سامية ووطنية للأجيال .
" صدقتِ يا أستاذتى .. وأنا على دربك أسير " .. هكذا حدثت انتصار نفسها ، وهى تخطو الخطوة الأولى بداخل القاعة .

قمة سعادة انتصار ، تأتيها فى اللحظات الأولى لوجودها بالقاعة ، عندما تحلق ببصرها سريعاً نحو تلك الوجوه البريئة ، فترى الشفاه جميعها ، مبتسمة ، فرحة لمقدمها .. تتأكد لحظتها بأن الحب متبادل بينها وبين تلميذاتها ... وهو ما يعطيها دفعة قوية لبذل الجهد وهى تشرح .

تعودت انتصار وهى تشرح منهج تاريخ مصر الحديث ، أن تعرج بطريقة غير مباشرة ، إلى بعض هموم الوطن العربى ، وكيف أن الدول الكبرى لازالت كما هى تطمع فى ثروات العرب ، خاصة النفطية منها ، وتسوق الحجج للتدخل فى شئونها ... بالتهديد تارة ، وبالوعيد تارة أخرى ، تؤدى انتصار عملها بطريقة لا تتعارض مع التزامها بالمنهج المقرر ، هكذا تعلمت من قدوتها الأستاذة فاطمة .

عزمت انتصار أن تشرح تجربة الشعوب المختلفة فى مقاومة الاستعمار.. ومنها تجربة الهند وزعيمها العظيم غاندى ، الذى استخدم سلاح مقاطعة شراء البضائع الإنجليزية ؛ مما جعل بريطانيا . الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس . تستسلم ، وتنعم الهند باستقلالها . نوت أن تحكى لتلميذاتها ذلك كمدخل يُظهِر أهمية سلاح المقاطعة ، الذى بدأت الشعوب العربية فى استخدامه .

حين همت بالحديث ، فاجأتها التلميذة هناء ، التى تجلس فى الصف الأول ، برفع يدها استئذاناً فى الحديث ، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة ، قالت لها انتصار :

. ماذا تريدين يا هناء ؟ .. لم أبدأ الشرح بعد .

اتسعت ابتسامة هناء ، وقالت :

. أستاذة انتصار .. أترغبين فى مشاركتنا بمقاطعة الكوكاكولا ؟

فرحت انتصار لفتح موضوع المقاطعة مباشرة .. أجابت على السؤال بسؤال آخر ؛ تهدف انتصار من وراء ذلك معرفة مدى جدية التلميذات ، ومدى اقتناعهن وإيمانهن بجدوى المقاطعة .

قالت انتصار :

. أشارككن فى المقاطعة إذا اقتنعت بجدواها .. ولكن أسألكن أولاً لماذا تقاطعن البضائع الأمريكية ؟ ... وهل كلكن تقاطعنها ؟

على الفور قالت هناء :

. نعم ... كلنا بالفعل تعاهدنا ألا نشرب الكوكاكولا ... ونقاطع كل ما تنتجه المصانع الأمريكية .

وجهت انتصار نظرها إلى عنايات المراكبى وإحسان ، الجالستين سوياً على تختة واحدة ، وجدتهما لا ترفعان اليد ؛ رغبة فى عدم المشاركة ، أذنت انتصار لتلميذة تدعى سعاد ، رفعت يدها لأعلى ، قالت :

. أنا أقاطع المنتجات الأمريكية ؛ لأن أمريكا تدعم إسرائيل ، وتنحاز لها بدون وجه حق .. وتحاول قهر الشعب الفلسطينى .

تشجعت تلميذات أخريات ، رفعن أيديهن .. كانت إجاباتهن متفاوتة ، لكنها تعبر عما يجيش فى نفوسهن بصدق .

. أمريكا غير عادلة ومتغطرسة ... الأسلحة الفتاكة تمد بها إسرائيل التى تستخدم هذا السلاح لتقتل به الشعب الفلسطينى .

. يجب أن نشجع الصناعات الوطنية ، مهما كانت درجة إتقانها ، ولفترة من الزمن ؛ حتى يمكن لها مواجهة المنتجات الأجنبية .

. أنا بمشاركتى فى المقاطعة أشعر بأننى أساهم فى معركة المصير بالنسبة للوطن العربى .

. عندما بدأت المقاطعة تنتشر .. ولم أكن قد شاركت فيها بعد .. كنت إذا اشتريت زجاجة كوكاكولا .. أو دخلت مطعم مكدونالدز ، أو أى مطعم أمريكى آخر .. كان ينتابنى ساعتها شعور بأننى أخون أهل بلدى .. لذلك أسرعت بالمشاركة فى المقاطعة .

. أنا لا أشرب الكوكا كولا ؛ لأنها رمز لأمريكا .. والشركة تساند إسرائيل بدعمها المادى لها .. حتى أن إسرائيل أقامت حفلاً كبيراً لشركة الكوكاكولا ؛ لدعمها المستمر لها .

و ترفع إحسان يدها لتتحدث ، إنها عضو باللجنة الثقافية وصحافة المدرسة ، وتلقى قصائد فاروق جويدة الوطنية وغيره من الشعراء ، فى مسابقات الإلقاء المدرسية ، تبتسم انتصار لها ، وتركز السمع لما ستقوله ، قالت إحسان :

ـ عندما أسير فى شوارع بلدى ، وأرى محلات مكدونالدز وكنتاكى منتشرة فى كل مكان ، وخاصة فى تجمعات الأندية ، أشعر بأن أمريكا قد غزت بلدى واستعمرته بتلك المحلات ، إن من يتردد على تلك المحلات ـ للأسف ـ وأغلبهم من الشباب المتأمرك ، لا يعى بأن بفعله هذا يساعد أمريكا على محو هويتنا الثقافية .. نعم فالغزو الثقافى يدخل فيه ملابس وطعام وشراب الآخر .

ترتفع الأيدى مطالبة الإذن بالحديث ، لكن انتصار تخبرهن ، بأن تلك الأسباب التى ذكرت ، كافية ومقنعة . وتشرح لهن بأن هناك بضائع أجنبية كثيرة ، يجب معرفة هويتها قبل الشراء ، حيث يوجد أسفل الشريط الكودى الملصق على المنتج مجموعة من الأرقام ، تتكون غالباً من ١٣ رقماً .. ويعرف ذلك "بالباركود" ومن هذه الأرقام يمكن معرفة أين أنتجت السلعة بسهولة ويسر ..

ثم وجهت سؤالاً للتلميذات :

ـ من يعرف الرقم الدال على إسرائيل ؟

رفعت عنايات المراكبى يدها ، كانت هى الوحيدة التى رفعت يدها ... أجابت :

ـ ٧٢٩ ويكتب بالحروف الأجنبية .

تابعت انتصار سؤال بقية التلميذات :

ـ و من يعرف الرقم الدال على دولة أمريكا فى " الباركود " ؟

لم تعرف رقم أمريكا إلا عنايات المراكبى أيضاً .. قالت :
ـ أمريكا وكندا من صفر إلى ١٣ .

قالت انتصار موجهة حديثها لعنايات ، وهى تبتسم :
ـ شكراً يا عنايات ... كان يجب عليكِ أن تعلنى تلك الأرقام لزميلاتك .. فالمنتجات الأمريكية والإسرائيلية كثيرة .

ثم استدارت إلى السبورة ، ممسكة بإصبع الطباشير ، وكتبت بخط واضح الأرقام الدالة على دولتى أمريكا وإسرائيل ، طالبة من التلميذات سرعة كتابتها ، بعدها مسحت ما كتبته ، ووجهت حديثها لهن قائلة :
ـ كفى اليوم حديثاً عن المقاطعة .. نبدأ الدرس .
لكن التلميذة هناء ، أسرعت بالحديث متسائلة :
ـ يا أستاذة انتصار .. حضرتك لم تجيبى عن سؤالى .. أترغبين فى مشاركتنا بمقاطعة الكوكاكولا؟ .. لقد أقسمنا هنا ألا نشربها.

قالت انتصار :
ـ يا هناء .. أبعد كل هذا تسألين ؟ .. بالطبع أنا أقاطعها قبلكن ، لكن لأسباب أخرى مختلفة .. فأنا مريضة بالمصران الغليظ .. والطبيب يمنعنى من شرب المياه الغازية جميعها ..

والعجيب أن نسبة كبيرة من الشعب المصرى تشكو من ذلك المرض ، ومع ذلك يشربون الكوكاكولا والبيبسى كولا .

صمتت انتصار برهة ، ثم واصلت حديثها ، وهى تبتسم :

ـ هناك سبب آخر جَدَّ هذه الأيام ، يمنعنى من تناول السكريات ، حالياً أقوم بعمل رجيم ، ونكتفى بالحديث عن المقاطعة اليوم ، ونبدأ الدرس .

أمسكت انتصار إصبع الطباشير ، وكتبت فى منتصف أعلى السبورة " ٨ أبريل ٢٠٠٢م " وهو تاريخ اليوم ، ثم استدارت إلى التلميذات ، وكعادتها سألتهن :

ـ هل تعرفن أهم الأحداث التى وقعت فى مثل هذا اليوم ؟

أجابت التلميذة إحسان على الفور ، ويبدو أنها كانت تتوقع طرح هذا السؤال ، فالتلميذات تعودن على طريقة وأسلوب انتصار فى شرحها للتاريخ والأحداث الهامة ... قالت إحسان :

ـ وقعت الغارة الإسرائيلية على مدرسة بحر البقر ، وهى بإحدى قرى محافظة الشرقية فى ٨ أبريل ١٩٧٠م ، وقد قتل العشرات من التلميذات الصغيرات فى تلك الغارة .

سألت انتصار :

ـ لِمَ ؟ .. لِمَ تفعل إسرائيل المنتصرة فى حرب ١٩٦٧ ذلك ؟

ولم تنتظر إجابة عن سؤالها من التلميذات .. بل واصلت حديثها ، وهى تسير بخطوات بطيئة ، تجوب أركان القاعة ، وعيون كل التلميذات متجهة إليها ، قالت :

ـ فعلت إسرائيل ذلك .. لكى تكسر إرادة الشعب المصرى .. وإذا كُسِرَت إرادة الشعب ، فإنه سيقبل الحلول الانهزامية .. لكن الشعب بعد حرب ١٩٦٧ لم يعترف بالهزيمة .. وصمد مطالباً بالثأر لاسترداد سيناء .. جميع الحروب التى وقعت فى العالم ، أو حتى التهديد بها ، تهدف كلها إلى كسر إرادة الآخر .

تنظر انتصار إلى عيون تلميذاتها ، لترى تأثير ما تقوله عليهن، تطمئن ، تعاود سؤالهن :

ـ هل هناك أحداث هامة أخرى حدثت فى مثل هذا اليوم ؟

على الفور رفعت هناء يدها ، والابتسامة الدائمة على شفتيها قالت بعد أن أذنت لها انتصار :

ـ فى٨ أبريل١٩٨٥ كان مولدى..اليوم عيد ميلادى السابع عشر.

تضحك انتصار وكل التلميذات .. ويهنئن هناء بعيد ميلادها .

٤

أحست انتصار بعد انتهائها من الشرح ، بإعياء شديد ، مع شعور بالجوع ، فى العادة تتغلب على ذلك ، بتناول قطعة من الحلوى أو " الشيكولاتة " ، بدون تردد مدت يدها فى حقيبتها ، ثم أخرجتها ممسكة بقطعتين من الحلوى ، التهمتهما سريعاً ، وهى تسير متجهة لقاعة الدراسة الأخرى ، بعدها شعرت بارتياح ، وتجدد نشاطها .
ابتسمت ابتسامة خفيفة ، ساخرة من نفسها ، فقد كانت عزيمتها فى الصباح قوية ، مصممة على اتباع تعليمات "الرجيم" بكل دقة .

خطر على بالها تساؤل ، انزعجت له :
هل يا ترى أصيبت هى الأخرى بمرض السكرى مثل والدها ؟

تعلم أن السكرى من الأمراض الوراثية ، لكنها استبعدت على الفور هذا الخاطر ، مقنعة نفسها بأن شعورها بالجوع يرجع للجهد الزائد فى الشرح ، مع قلة ما تناولته فى الإفطار .

وقفت انتصار بخارج القاعة؛ انتظاراً لدق الجرس، المعلن عن بدء الحصة الخامسة، لكن الأصوات التى سمعتها منبعثة من القاعة، جعلتها تسرع بالدخول . رأت التلميذة هيام ترقص على إيقاع تصفيق ثلاث من التلميذات ، بينما التلميذة المحجبة ناريمان التى تؤم التلميذات غالباً فى صلاة الظهر بالمسجد ، تصرخ فى وجه هيام قائلة

ـ حرام ... الصهاينة تذبح الناس فى فلسطين ... وأنتِ هنا ترقصين ؟ .. انعدم الإحساس لديكِ ؟

ـ الأستاذة انتصار ... الأستاذة انتصار ...

أعلنت إحدى التلميذات بصوت مرتفع ، عن قدوم انتصار ، فتوقف كل شئ ، الرقص ، التصفيق ، الصراخ ، والتزمت التلميذات سريعاً بأماكنهن فى هدوء .

فى لحظات مر بذاكرة انتصار شريط ذكريات يتعلق بالتلميذة هيام ، جعل انتصار تقول فى سرها :

ـ ليس غريبا عليها أن تفعل ذلك .

تذكرت انتصار شكوى الأخصائية الاجتماعية عطيات ، عندما لاحظت أن هيام تصرف يومياً ببذخ على بعض التلميذات ؛ بهدف توليها الزعامة ، وتمكنها من السيطرة عليهن .

عندما استدعت مديرة المدرسة والدها ؛ لتنبهه بأن كثرة المال فى هذه السن غير مستحبة ، وفقاً لمعايير التربية السليمة ، أجابها محتجاً :

ـ معى فلوس كثيرة ... فلماذا أحرم ابنتى ؟ ... أعطيها مصروفاً ليدها فى اليوم خمسين جنيهاً فقط .. فهل هذا كثير ؟

رده الغريب هذا كان دافعاً لمعرفة كل شئ عنه ، تبين أنه لم يحصل إلا على الشهادة الإعدادية ... عمل عاملاً بسيطاً ومهرباً بالميناء فى بداية حياته ، فتاجراً وقت انفتاح السبعينيات ... ثم وكيلاً لإحدى الشركات الأمريكية .. ويتعامل فى بضائع إسرائيلية ، ومن هنا كانت ثروته الهائلة .. بعدها تزوج مرة أخرى وأنجب ابنته هيام .

تتذكر انتصار واقعة ثانية تتعلق بهيام ، حيث تأتى إلى المدرسة يومياً بسيارة حديثة يقودها سائق شاب ، وسيم ، وكذلك عند عودتها. عندما شاهدت إحدى المدرسات هيام ملتصقة بالسائق ، الذى يحيطها بذراعه ، وهو يعلمها القيادة بمفردهما ، بأحد الشوارع الهادئة بسموحة . استدعت مديرة المدرسة والدها مرة أخرى ، ودعته لأن تشترك ابنته فى سيارة المدرسة ، فى الحضور والعودة مع التلميذات ، لكن والدها رفض اقتراح المديرة رفضاً قاطعاً ، ومبرراً رفضه ، بأن ابنته تعودت أن تكون كل تحركاتها بسيارة خاصة .

أما الواقعة الثالثة ، وتتذكرها انتصار جيداً ، عندما قابلها والد هيام بالمدرسة ، عارضاً عليها إعطاء ابنته دروساً خصوصية فى التاريخ . تتذكر ما قالته له :

ـ أشرح دروسى بسهولة .. وأتأكد من فهم التلميذات .. كما توجد مجموعات تقوية فى مادة التاريخ بالمدرسة .. فلماذا أعطى دروساً خصوصية ؟

تتذكر انتصار محاولاته وإلحاحه ، لكى توافق ، بعرضه مبالغ مالية كبيرة .. قابلتها بالإصرار على الرفض .

شريط الذكريات هذا ، مر فى ثوان ، فكرت انتصار أن تؤنب هيام بطريقة مباشرة ، لكنها عدلت عن ذلك ، مفضلة أن يتم ذلك بطريقة غير مباشرة .. ويدق الجرس معلناً بدء الحصة الخامسة .

توجه انتصار حديثها لكل التلميذات :

ـ فى الحصة السابقة ... كنت بفصل ثانية أدبى أول ... كانت تلميذاته لديها الحس الوطنى الصادق .. جميعهن انفعلن مع الأحداث الجارية بفلسطين .. قررن المشاركة فى مقاطعة كل المنتجات الأمريكية والإسرائيلية .. شعور وطنى جميل منهن .. ما رأيكن فى المقاطعة ؟ .. وهل هناك رأى مخالف ؟

على الفور رفعت هيام يدها مستأذنة فى الحديث .. قالت :

ـ أصبحت لا أشترى الكوكاكولا من مقصف المدرسة ، احتراماً للشعور السائد بالمدرسة .. لكننى كل خميس وجمعة أذهب مع صديقاتى لمحلات مكدونالدز وكنتاكى .. فأنا لا أقاطعها .. فهى محلات مصرية ، وأتعامل بها مع عمال مصريين .. تلك المحلات لا تربطها بأمريكا إلا اسمها فقط .. أمريكا دولة غنية جداً ولن تتأثر بتلك المقاطعة .. فلماذا نحرم أنفسنا إذن ؟

بغضب ترد عليها ناريمان :

ـ إن نسبة من أرباح تلك المحلات تذهب لأمريكا ... وهى مبالغ كبيرة مقابل الاسم التجارى .. لماذا تحمل هذه المحلات تلك الأسماء الأمريكية ؟ .. لماذا لا تكون بأسماء تجارية عربية ؟ فيكون كل المكسب لمالك المحل .. إن كل قرش يدفع .. رصاصة فى جسد طفل مسلم .

ثم استطردت ناريمان فى الحديث ، وقد أخرجت من جيبها ورقة مطبوعة ، قرأت بعض ما بها .. قالت :

ـ أفتى الدكتور نصر فريد واصل ، قائلاً :

" إذا لم نكن نستطيع كشعوب أن نجاهد فى سبيل الله وتحرير فلسطين .. فليس أمامنا إلا سلاح المقاطعة الاقتصادية مع العدو ومعاونيه ، وهو أمضى الأسلحة لتحقيق النصر عليهم ، فنحن سوق مفتوحة للعالم الغربى ، الذى يساعد هذا المغتصب المحتل ولو استعملنا سلاح المقاطعة ، وهددنا هذه الدول بالمقاطعة ، سيقف الجميع ضد هذا المحتل ويركع العدو الصهيونى أمامنا ".

هذا ما قاله بجريدة الأسبوع . كما أن فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى قال فى هذا الشأن أيضاً :

" أنه يحرم على المسلمين شراء البضائع الإسرائيلية والأمريكية ويجب مقاطعتها شرعاً ، ولا يجوز أن تدخل بيوتنا ، و إلا كنا آثمين أمام الله وأمام الناس " .

وتتحدث تلميذات أخريات ، كلهن أيدن موقف المقاطعة ، بعدها تنهى انتصار المناقشة ، قائلة :

. من يؤيد الرأى القائل بأهمية وضرورة المقاطعة للمنتجات الأمريكية والإسرائيلية ؟

على الفور ترتفع أيدى التلميذات جميعها لأعلى .. عدا هيام ، التى احمرَّ وجهها خجلاً وخزياً .

تبدأ انتصار فى تأريخ اليوم ، على السبورة بالطباشير ، لتحدثهن قبل بدء شرحها للمنهج ، عن الغارة الإسرائلية التى وقعت فى مثل هذا اليوم على مدرسة بحر البقر .. كان شرحها بصوت مرتفع حتى تنبه التلميذات المجهدات فى نهاية اليوم الدراسى .

أما فى حجرة مدرسى التاريخ والجغرافيا ، فقد سادها الصمت حيث انهمكت المدرسات فى عملهن ، بين تصحيح الكراسات ، وبين إعداد كراسات التحضير ، بينما انشغل الأستاذ حماد بقراءة أحد الكتب التاريخية التى تساعده فى إعداده لرسالة الماجستير.

بعد قليل ، وفى هذا الهدوء التام ، سُمِعَ صوت الأستاذ حماد يشدو بصوت خفيض جداً ، بأغنية للمطرب السودانى ، سيد خليفة " المامبو سودانى ... مامبو " ، و مع انسجامه بتلك الأغنية أخذ صوته يرتفع قليلاً ، فوصل لأسماع المدرسات ، فتوقفت أقلامهن عن الكتابة ، وفور التقاء نظراتهن ، ارتسمت بسرعة البسمات على الشفاه . ازداد الأستاذ حماد اندماجاً فى الغناء ،

فأخذ ينقر بأصابعه مع إيقاع الأغنية على المكتب الخشبى ، عندئذ لم تستطع وفيّة أن تحافظ على سكونها ، حيث انطلقت منها ضحكة عفوية ، بصوت مرتفع ، فأمسك حماد عن الغناء وهو يلتفت لهن معتذراً :

ـ آسف .. آسف .. لم أكن أعتقد أن صوتى يصل لأسماعكن .

ـ لِمَ الأسف ؟ ... إنها أغنية جميلة ... أنا أحبها .. لكن نادراً ما أسمعها الآن فى الإذاعة .

هكذا ردت عليه وفيّة .

قال لهن وهو يبتسم :

ـ كنت أقرأ كتاباً عن الاستعمار الأمريكى فى أفريقيا .. ومحاولاته تثبيت أقدامه ، فى الدول التى يعلم بوجود ثروات بترولية بها ، أو لها مواقع استراتيجية ، وذلك بتشجيعه للنزاعات العرقية والانفصالية ، فسرحت وأنا اقرأ الكتاب ، إلى أيام طفولتى بحلايب، حيث كنت أتغنى بتلك الأغنية كثيراً .

سألته سحر مدرسة التاريخ ، المنقولة حديثاً هذا العام للمدرسة، عما إذا كانت جذوره من السودان .

قال لها حماد :

ـ جدى مصرى ، تزوج من جدتى ذات الجذور السودانية ، عاشا بمنطقة حلايب . وسكانها لهم جذور مصرية وسودانية .

قالت وفيّة ، فى محاولة منها كى يخفف حنقه وكرهه لأمريكا :

. ليتك يا أستاذ حماد عشت عدة سنوات مثلى فى أمريكا ، لكنت غيرت رأيك عنها .

قال حماد فى حوار معها :

. أفعالها معروفة ، ومفضوحة ، ولا تحتاج لأن يعيش المرء بها لمعرفتها .

. شعبها يعشق الديمقراطية ، ويتم تداول السلطة فى الانتخابات بسلاسة بين الأحزاب ويمتثلون لرأى الأغلبية .. حتى ولو كان الفارق ضئيلاً .. هل تتذكر انتخابات بوش الابن ؟ .. لقد كان الفارق ضئيلاً جداً بينه وبين منافسه .

. بالنسبة لهم فقط .. فهم لا يعترفون بقواعد الديمقراطية بالنسبة لسائر الشعوب والدول الأخرى .

. كيف ؟ .. أوضح أكثر .

. هل تتذكرين معركة تجديد ولاية بطرس غالى أمين عام الأمم المتحدة .. لقد حصل بطرس غالى على موافقة ١٤ عضواً بمجلس الأمن .. عدا صوت واحد فقط .. هو صوت أمريكا .. غضبت عليه أمريكا ؛ لأنه لم يمتثل بأمرها فى كل شئ. ألم يكن من الديمقراطية التى تتباهى بها أمريكا أن تمتثل لرأى الأغلبية؟

ـ والمواطن الأمريكى يشعر بحريته كاملة ... ويتمتع بحمايـة ، وبتطبيق قوانين حقوق الإنسان عليه .

ـ أما غير الأمريكى ... فتنطبق عليـه قوانين جوانتانامو ... وما رأيك فى الانحياز الأمريكى لإسرائيل ، التى تنتهك حقوق الإنسان الفلسطينى فى جنين وغيرها ، ويظهر ذلك جلياً على شاشات التليفزيون ؟

قالت سحر التى كانت تستمع للحوار الدائر موجهة حديثها لوفيّة :

ـ فى هذا ، الأستاذ حماد معه حق كل الحق .

ردت عليها وفيّة :

ـ وأنا معكِ فى ذلك ... ولكن المواطن الأمريكى مغلوب على أمره ... هو يعتقد أن الدنيا كلها أمريكا ... لا يعرف شيئاً عن البلاد والمشكلات الأخرى ... لا يهتم بأية مشكلات خارج حدود بلده ... والإعلام هناك تسيطر عليه الجماعات اليهودية وأصحاب المصالح الرأسمالية .

عقبت سحر :

ـ إنـهم يتحدثون دائماً عن ضرورة معرفة الآخر فلماذا لا يحاولون أن يتعرفوا علينا وعلى غيرنا أيضاً ؟ .. لقد شوه إعلامهم كذباً صورة الإسلام بعد أحداث ١١ سبتمبر .. كى يتقبل المجتمع العالمى ما يفعلونـه ضد الدول الإسلامية والعربية التى لا تسير فى ركابهم .

قالت وفيّة ، موجهة حديثها لزميلتها سحر :

ـ إنهم معذورون ، ما حدث لهم فى الحادى عشر من سبتمبر شئ يفوق الخيال ... يتصرفون وهم غاضبون .

على الفور أجابها حماد :

ـ أحداث الحادى عشر هى المبرر الآن لتحقيق أطماعهم الاستعمارية .. لقد تحدثوا عن الخطر الإسلامى فى كتب أصدروها بعد انحسار الشيوعية .. قالوا إن الإسلام هو الخطر الحقيقى عليهم ... كان ذلك قبل الحادى عشر بسنوات .. والآن يهددون بضرب العراق .. و بعدها سوريا .. ثم ليبيا وهكذا ... يريدون إذلال هذه الأمة ..

ردت وفيّة بهدوء :

ـ لديهم الأسباب والمبررات المختلفة لكل دولة على حدة .

ـ لا يا سيدتى وفيّة ... الهدف واحد وهو السيطرة على مقدرات هذه الأمة من ثروات وبترول وخلافه .. وجعلها أمة مستهلكة لمنتجات مصانعهم .

ـ أخالفك الرأى ... فالعراق مشكلته أنه يرفض دخول المفتشين للبحث عن أسلحة الدمار الشامل ... فضلاً عن نظام صدام الديكتاتورى .

ـ يا سيدتى وفيّة .. كى لا نختلف نرجع إلى الوثائق والمستندات ... نرجع إلى التاريخ ... أمريكا فى الخمسينيات ،

وبعد جلاء الإنجليز عن مصر .. وعن بعض البلاد المجاورة .. خرج علينا رئيسهم أيزنهاور بمشروع ملء الفراغ .. أى تتواجد أمريكا بدلاً من الاستعمار الإنجليزى فى منطقة الشرق الأوسط .. وسأحضر إليكِ باكر صوراً لعناوين الأخبار من جريدة الأهرام ، عندما قام العراق بثورته ... ستجدين فيها ما يؤكد كلامى معكِ ... إنهم يهتمون بالنفط ، والنفط فقط .. وليس نظام صدام الذى لم يكن موجوداً بالطبع عام ١٩٥٨م.

قالت محاسن مدرسة الجغرافيا ، الصامتة دائماً ، موجهة حديثها لكل من حماد و وفيّة :

ـ لن ينتهى الجدل بينكما أبداً .. مشكلتى أن هذا الحوار سأسمعه فى منزلى بعد عودتى ، بين زوجى وبين كل من يحضر لزيارتنا

من الأقارب ، فإن حاولت الهرب من الاستماع لهذه الأحاديث ، بمشاهدة إحدى القنوات التليفزيونية ، أو إحدى محطات الإذاعة لا ترى عينى ، ولا تسمع أذنى إلا أحاديث مماثلة .

يدق الجرس معلناً انتهاء الحصة الخامسة ، فيتوقف الجدل بحجرة مدرسى التاريخ والجغرافيا ، وتنهى انتصار شرحها .

٥

أثناء خروج انتصار من المدرسة ، بعد انتهاء العمل ، لقيت سمية قرب الباب ، دعتها لسيارتها ، فهى ذاهبة اليوم لزيارة والديها بمسكنهما بالإبراهيمية ، المجاور لمسكن سمية .

فور ركوبهما ، قالت سمية ، وهى تربط حزام الأمان :
ـ بعد أن خرجت من مكتب المديرة ، وقفت بالحوش ؛ لملاحظة البنات وقت الفسحة ، فضلت أن أكون قريبة من الكنتين ، لأتأكد مما قاله الحاج سالم .. تبين أنه صادق فى كلامه .. فلم أر تلميذة واحدة معها زجاجة كوكاكولا .

عقبت انتصار وهى تقود السيارة :
ـ المجازر التى تحدث يومياً للشعب الفلسطينى ... و الانحياز الأمريكى المستمر لإسرائيل .. لابد أن يكون له رد فعل حاسم ، أحسن شئ لذلك هو استخدام سلاح المقاطعة .

فى الطريق ، تحكى انتصار ما سمعته من آراء التلميذات ، ثم ينتقل الحوار بينهما إلى " الرجيم " ، توصيها سمية ببعض التمرينات الرياضية ؛ لتساعدها فى إذابة شحوم الوسط . بعد قليل تصلان إلى الإبراهيمية ، فيتفرق كل منهما إلى وجهته .

تصعد انتصار عدة درجات رخامية ، بسلم عمارتهم العتيقة ، تلك العمارة التى عاشت بها أحلى سنوات عمرها قبل الزواج ، وانتقالها لمسكن الزوجية بسيدى بشر . فور أن تدخلها ينتابها شعور بالحنين ، ممتزجاً بدفء الذكريات ، تتجه بعدها إلى المصعد الذى تم صيانته وتجديده حديثاً ، كانت حالته السابقة ، سيئة للغاية كثيراً ما كان يتعطل ولفترات طويلة ، لتقاعس السكان عن إصلاحه من جهة ، ولرفض ورثة صاحب العمارة المشاركة المادية ؛ بحجة أن الأجرة التى يتقاضونها شهرياً من السكان لا تكفى لإصلاحه .. فهى جنيهات قليلة .

بداخل المصعد ، تشكر انتصار فى سرها ، شقيقها أيمن ، الذى قام بعملية الإصلاح ، هو وبعض السكان المقتدرين ، فور أن عاد نهائياً من السعودية ، هو وأسرته ، وإقامتهم مع والديهما . بفعله هذا أدخل البهجة والسرور لكثير من السكان ، وكان أكثر السكان شعوراً بالبهجة والداهما ، حيث كانا فى حالة تعطل المصعد ، يصعدان درج السلم إلى الطابق الخامس بشق الأنفس ، مما دعاهما فى أوقات كثيرة للعزوف عن مغادرة الشقة . كما كانت انتصار تكابد مشقة الصعود عند كل زيارة لوالديها .. وغالباً ما كانت تكتفى بالاطمئنان عليهما تليفونياً .

رحب أيمن بشقيقته انتصار ، التى عانقت زوجته سارة ، لقد أحبت زوجة شقيقها أكثر من ذى قبل ، لعنايتها الفائقة بوالدتها الحاجة إنعام ، خاصة بعد أن أقعدها المرض ، نتيجة لكسر ساقها الأيسر ، الذى وُضِعَ فى الجبس .

عن ذلك ، تتساءل انتصار فى سرها كثيراً :

ـ ماذا كانت تفعل والدتها الآن ، لو لم يكن معها أيمن وسارة ؟ . إنها الأقدار التى ترتب كثيراً من أمور الحياة ، خيراً مما لو رتبها المرء نفسه .

لقد حزنت الأسرة لانتهاء عقد أيمن بالسعودية ، والاستغناء عنه هو وبعض المصريين . وزاد من حزنها ، أن شقته التمليك بأحد أبراج جليم ، لم تنته بعد ، مما اضطره لأن يقيم هو وزوجته وولداه فيصل وفهد بشقة العائلة ، إلى أن يتم الانتهاء من تشطيب شقته ، وكأن القدر قد رتب هذه الأوضاع لراحة الحاجة إنعام .

أسرعت انتصار بدخول حجرة والدتها ، وجدتها تجلس على كرسيها المتحرك ، ممدة ساقها المكسورة ، واضعة إياها على منضدة صغيرة .. مسندة خدها على راحة يدها .. فى نظراتها حزن عميق .. وأمامها التليفزيون ، تشاهد على إحدى قنواته الفضائية نشرة للأخبار

قالت انتصار لها :

ـ خير ؟ .. فى عينيك حزن .

دون أن ترد الحاجة إنعام ، أشارت لها بيدها إلى مقعد خال ؛ لتجلس عليه .. ثم أشارت بيدها إلى ما يحدث على شاشة التليفزيون على أنه السبب فى حزنها .. جلست انتصار تتابع مع أمها ما يعرض.

كانت الصور المعروضة ، عن حصار الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات فى رام الله ، والاعتداءات الإسرائيلية فى جنين ، والمظاهرات التى تجوب العالم ، ثم خبر وفاة المواطن البحرينى محمد جمعة ، الذى توفى متأثراً بجراح أصيب بها يوم الجمعة الماضى ، فى مظاهرات الشباب البحرينى بالمنامة ، أمام السفارة الأمريكية ، التى هاجموها بالحجارة ، وقنابل المولوتوف الحارقة ؛ مما أشعل النار بالفناء الداخلى بالسفارة .

قالت انتصار :

ـ كنت أظن أن معظم المشاركين فى المظاهرات من الشباب الذى ينفث عن غضبه للفقر الذى يعيشه .. لكننى ألغيت هذه الفكرة ، عندما شاهدت الشباب بدول الخليج ، المتيسر حالهم ، وهم يتظاهرون بغضب وثورة ضد أمريكا وإسرائيل .

هزت الأم رأسها فى أسى عدة مرات ، ثم قالت :

ـ شباب هذه الأيام غيرنا ... إنهم يعرفون فى الحال ما يحدث ، بعكس زماننا ، كانت الأخبار قديماً تأتى إلينا عن طريق وكالات الأنباء ، وفقاً لما يريدون نشره فقط .. أما الآن فهم لايستطيعون،

فالصور تفضح وتنطق .. وما يحدث للفلسطينيين يظهر على كل الشاشات .. وانحياز أمريكا الواضح ليس له ما يبرره .. لو كنت بصحتى لشاركتهم المظاهرات ...

تؤيد انتصار قول أمها قائلة :

. تمنيت أن أسير فى مظاهرات الأمس أيضاً ، و أنا أقرأ عنها بالأهرام .. لقد أنسيتنى يا أمى ما كنت أود أن أقوله .

. عن أى شئ ؟

. استطعت أن أحجز لخالتى وعائلتها بالفندق .. كانت الحجرة التى يريدون النزول بها مشغولة بأحد الأجانب .. عندما حدثه مدير الفندق بأدب ، وشرح له رغبة نزيلين يودان الإقامة بحجرته ، يوم ١٣ أبريل . ذكرى زواجهما . لم يمانع ، سينقل الأجنبى عند حضورهم إلى حجرة أخرى تطل على البحر أيضاً .

. و حجرة الدكتورة أصالة وابنتها تطل على البحر أيضاً ؟

. طبعاً .. وهى مجاورة لحجرة خالتى .. لو تأخروا عن الحضور عدة أيام أخرى .. لما أمكننى الحجز لهم .. فكل فنادق الخمسة نجوم بالإسكندرية محجوزة لقرب افتتاح المكتبة .. سيحضر افتتاحها ملوك ورؤساء دول ومرافقوهم .

. ليس من عادة إيمان وزوجها الاحتفال بعيد زواجهما بالفندق .. لكن عندما عَلِمت بكسر ساقى .. ومضت مدة طويلة لم نتقابل .. قررت الحضور ، وتصادف وقت الحضور ذكرى الزواج .

تسأل الجدة انتصار عن الحالة الصحية لابنتها سلوى ، والتى تنتظر وضع مولودها الأول ، خلال تلك الأيام القليلة القادمة ، أجابتها انتصار بأن ابنتها تعيش قلق الوضع لأول مرة ، وأنها أكثر منها قلقاً ، حتى أنها تتخيل أى رنين يصل إلى تليفونها المحمول ، بأنه استدعاء من ابنتها سلوى ؛ كى تسرع إليها فوراً.

تبتسم انتصار ، وهى تخبر أمها بأن أحمد وسلوى ، اتفقا على أن المولود إن كان بنتاً فإن احمد هو الذى سيختار اسماً له ، أما إن كان ولداً ، فإن سلوى هى التى ستسميه .

قالت الجدة إنعام :

ـ جدك ـ رحمه الله ـ اختار اسمى واسم خالتك إيمان ، وخالك أحمد ، وكلها أسماء تبدأ بحرف الألف ؛ تكريماً لأمى إحسان . وعندما تزوجت وسُميتِ أنت انتصار ، طلبت من والدك أن يسمى أخاك باسم يبدأ بحرف الألف أيضاً .. أيمن .. سأختار أنا اسماً جميلاً يبدأ بحرف الألف .. سواء كان المولود ولداً أو بنتاً.

تدخل عليهما سارة ، بوجهها الطاهر ، الذى يزداد طهراً ونقاءً بتلك الطرحة البيضاء التى تلف بها رأسها ، حاملة صينية عليها كوب من الليمون ، تقدمها لانتصار ، مع بشاشة طبيعية غير مصطنعة .

تتبارى الأم وابنتها فى الإشادة بسارة ، وتقديم الشكر لها ، على عنايتها الفائقة بالحاجة إنعام . تخجل سارة من هذا الثناء ،

لكنها تتفوه ببعض الكلمات ، تمس شغاف قلب من يسمعها .. قالت لهما ، بأن أمها عندما ماتت ، كانت هى ببلاد الغربة .. أحست بعدها بالوحدة .. لا تجد من يقدم لها النصح إن احتاجته .. فقدت حنان الأمومة حقاً . وإن كان أيمن زوجها خفف عنها بعض الشئ ، لكنه كان مشغولاً بعمله طوال النهار ... وعندما عادوا لمصر ... وأقاموا هنا .. أحست بالأمان والاطمئنان يعودان إليها .. ولما لمست حنان الحاجة إنعام نحوها .. شعرت بأن أمها لم تمت .. ولم تزل حية .. قالت لهما سارة منهية حديثها .. بأن الشكر واجب عليها هى ، فقد حازت الحنان والأمان .

يدق جرس الباب ، القادم هو خالد ، ابن انتصار ، الطالب بالسنة الثانية ، قسم تاريخ بكلية التربية ، اختار أن يكون مدرساً مثل جدته إنعام ، التى كانت مدرسة موسيقى ، ومثل أمه ، وأحب خالد دراسة التاريخ ، فقد لاحظ أن أمه لا تدرس التاريخ فحسب ، بل إنها تتنفسه وتعشقه .

يسرع خالد نحو جدته ، يقبل وجنتيها ، تقبله هى الأخرى ، هكذا تعودا ، منذ كسرت ساقها ، حيث يعودها عقب خروجه يومياً من الكلية ، ولو لدقائق ليطمئن عليها ، ثم يستقل الترام لمنزله بسيدى بشر ، وأحياناً يجد عند جدته أمه ، فيعودان سوياً بسيارتها .

تربت جدته بيدها على كتفه بحنان ، تسأله :

ـ جوعان ؟ تريد أن تأكل ؟

يهز خالد رأسه علامة الموافقة .

تضرب انتصار كفيها ببعض متعجبة ، قائلة لأمها :

ـ يا حاجة .. أنا أجلس هنا معكِ منذ نصف ساعة ... ولم تدعونى للأكل مثل خالد .. أنا جائعة جداً .. هلكت من " الرجيم" اليوم .. سأساعد سارة ؛ لتسرع فى إعداد المائدة .

تخرج انتصار من الحجرة ، بينما يُخرِج خالد من جيبه بعض الأوراق المطبوعة التى تحث المصريين على مقاطعة السلع الأمريكية والإسرائيلية ، منها قائمة مدون بها المنتجات الواجب مقاطعتها ، وكذلك مدون بها البديل المقترح ، وعلى هذا البيان ، صور للجنود الإسرائيليين وهم يوجهون أسلحتهم ودباباتهم لصدور الشعب الفلسطينى الأعزل .

تمسك الجدة إنعام ، ببعض تلك القصاصات ، تقرأ ما بها فى صمت ، بينما يدخل عليهما الجد ، الذى كان بالخارج ، فيسرع نحوه خالد ويقبله ، يلاحظ الجد بأن صوت خالد قد بح ، عندما يستفسر منه عن سبب ذلك ، يخبره خالد بفخر ، بأنه شارك اليوم فى الهتاف ضد أمريكا وإسرائيل ، فيربت الجد على ظهره بحنان ، ثم يستعلم الجد من زوجته عن الأوراق التى بيدها ، فيجيبه خالد بأنها عن مقاطعة السلع الأمريكية والإسرائيلية .

يبتسم الجد ، ويقول لخالد :
ـ المقاطعة هى الخطوات الأولى الصحيحة للحفاظ على كياننا وحريتنا واستقلال وطننا .

تأتى انتصار ، لتشارك فى الحديث ، وتدلى بدلوها هى الأخرى حاكية لوالدها عما حدث بمدرستها بشأن المقاطعة ، مستفسرة منه عن بعض الأشياء المتعلقة بالمقاطعة ، فيجيبها الجد ، بأنه سيرد على كل استفساراتها ، بعد أن يتوضأ ويصلى ، وبعد أن يتناولوا الطعام.

يسأل الجد سارة عن أيمن ، حيث لا يشاهده معهم بالشقة ، تخبره بأنه يجرى مكالمات تليفونية ، مع بعض أصدقائه المصريين والسعوديين بالسعودية بحجرة النوم ، حول مشروعهم الذى يودون عمله . فيتمنى الجد له التوفيق ، طالباً من سارة إخباره بأن المائدة تعد الآن ليتناول الجميع الطعام معاً .

يدق جرس الباب ، عدة مرات متتالية ، تسرع سارة بفتح الباب، فهى تعلم أن ولديها بالباب ، قد عادا من المدرسة . يدخل الابن الأصغر فهد البالغ من العمر عشر سنوات ، حاملاً حقيبته ، التى يلقيها على الأرض باكياً ، بعده يدخل شقيقه الأكبر فيصل الذى يكبره بعامين ، والذى يجلس صامتاً . تستعلم منه أمهما عن سبب بكاء شقيقه ، فيخبرها فيصل باعتزاز :

ـ لأنـه اشترى شيكولاتـة من الممنوع شراؤها مصنوعة فى أمريكا أخذتـها منه ، ورميتـها فى الشارع .. كى لا يشتريـها مرة ثانيـة.

يبتسم الجد ، بينما تربت انتصار بيدها على فهد وتقبله ، يقول الجد مازحاً :

ـ الآن أصبح الحديث عن المقاطعة ضرورياً و هاماً ... كى ينضم فهد .. عضو العائلة المارق لصفوف المنادين بالمقاطعة .

٦

عقب تناولهم الغداء ، جلس الجد على مقعده المفضل لديه ، بوسط الصالة ، تعلوه صورته بزيه العسكرى ، برتبة اللواء البحرى ، قبل أن يتقاعد ، منذ سنوات بعيدة . على يمينه جلس أيمن وزوجته ثم حفيده خالد .

أما عن يساره ، فقد جلست انتصار على الكنبة ، بين فهد وفيصل ، تحتضنهما ، واضعة ذراعيها على كتفيهما ، تطيب خاطر فهد بضمه إليها وتقبيله تارة ، وبالعبث بأناملها برفق فى شعر رأسه تارة أخرى . يبتسم فهد لعمته ، على أمل أن تنفذ وعدها له عندما كان يبكى ... حيث وعدته بإحضار كمية من الشيكولاتة مماثلة للنوع الذى يحبه ، بينما شقيقه فيصل الأكبر منه ، يجلس فى صمت ، مصغياً لأحاديث الكبار ، فهى المرة الأولى التى يجلس فيها معهم برفقة شقيقه بعد تناولهم الغداء ، حيث تعوّدَ هو وشقيقه أن يناما فى مثل ذلك الوقت ، إلى أن توقظهما والدتهما ؛ ليعملا الواجبات المدرسية. أما الحاجة إنعام فقد فضلت أن تستريح فى سريرها .. فلبوا طلبها ، ثم أغلقوا باب حجرتها عليها.

قال الجد ، بعد أن ارتشف الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة ، الذى تعود على تناوله عقب الغداء :

ـ الحديث يا انتصار عن المقاطعة سيطول .. لكن أود أن أقنع أولاً

حفيدنا الصغير ، فلا أتصور أن يكون فى عائلتنا من يخرج عن إجماعنا .

ابتسم الجد وهو يحدث أصغر أحفاده فهد .. قال له :

ـ لِمَ يا فهد تصر على شرائك الشيكولاتة الأمريكية ؟

ـ لأنى احبها .. تعودت عليها .. كانت عمتى تهديها لى دائماً .

ـ لكن يا فهد الوضع تغير الآن .. فأمريكا تنحاز وتساند إسرائيل فى عدوانها على الشعب الفلسطينى بدون حق .

نظر فهد إلى جده ، غير مدرك لما يقال ، ماله هو ومال إسرائيل وفلسطين ؟! .. وما علاقة تلك الشيكولاتة بهذا الزخم الذى يسمعه ليل نهار بالراديو والتليفزيون ؟! .

استوعب الجد نظرة فهد ، فأخذ يبسط الأمر له ، قائلاً :

ـ يا فهد ... لو أنك تشترى هذه الشيكولاتة من أحد أصحاب المحلات كل يوم ، و فى أحد الأيام ، قام صاحب المحل هذا بضرب شقيقك أو شتمه .. هل ستذهب إلى محله هذا ثانية ، وتشترى منه ما كنت تشتريه من الشيكولاتة ؟.

ـ لا .. لن أشترى منه أبداً ... إذا ضرب أخى فيصل .

هكذا أجاب فهد بتلقائية .

ـ و هذا ما نحاول أن نفعله يا فهد ... نعاقب الدول التى تعتدى على بلادنا أو على البلاد الشقيقة .. إسرائيل اعتدت على فلسطين وشعبها ، وتحتل بعض الأراضى اللبنانية والسورية ..

وفلسطين وسوريا ولبنان هى دول عربية شقيقة لمصر .. لهذا فإننا نقاطع كل المنتجات الإسرائيلية ، وكذلك المنتجات الأمريكية لأنها تساعد إسرائيل فى عدوانها .

قال فهد لجده متسائلاً :

ـ لكن يا جدى ... هذا النوع من الشيكولاتة ... طعمه حلو .. ولا يوجد أنواع أخرى مثله .

ـ يا فهد .. عندما كنت فى مثل سنك أو أصغر .. لم يكن فى ذلك الزمان .. مثل هذه الأنواع الكثيرة من الشيكولاتة والحلوى .. كان أفضل شئ أتذوقه فى فمى وأحبه .. هو العسلية .. كنت سعيداً بها .. ولا أفكر فى سواها .. هل تعرف لماذا يا فهد ؟ .

ـ لأ يا جدى .

ـ لأننى تعودت على مذاقها فقط .. تماماً مثلك .. فلقد تعودت أنت أيضاً على أكل هذا النوع من الشيكولاتة .. جرب أنواع أخرى ... ستحبها أيضاً .

اعتدل الجد فى جلسته ، ووجه حديثه لهم جميعاً :

ـ قبل أن نطالب الجمهور بالمقاطعة ... يجب علينا توعيتهم ... عن أسباب المقاطعة .. وجدواها .. وإرشادهم للبدائل .. وخاصة جيل الشباب .. والأطفال .. فهم أكثر المستهلكين للمنتجات الأجنبية من ساندويتشات الهمبورجر والبيتزا ، ومشروب الكوكاكولا والبيبسى كولا .

قالت انتصار ، مؤيدة أقوال والدها :

ـ فعلاً ... أصبحت الأجيال الجديدة ... تفضل أكل الساندوتشات بالمحلات .. خالد أصبح يفضل الأكل خارج البيت ...

يقاطع خالد والدته قائلاً :

ـ أنا أصبحت الآن لا أدخل محلات الأطعمة الأمريكية .. أنا وكل أصدقائى.

يبتسم الجد لخالد ، قائلاً له :

ـ فى زماننا يا خالد ، عندما كنت صغيراً .. لم نكن نعرف البيتزا ولكن كنا سعداء بأكل أكلات أخرى ، وكنا نحبها .. أتذكر أمى ـ رحمها الله ـ عندما كانت تخبز العيش بالفرن الموجود بسطح المنزل ...

يسرع فيصل بالحديث متسائلاً :

ـ يوجد فرن بالسطح هنا يا جدى ؟

يجيبه الجد مبتسماً :

ـ ليس هذا البيت ... بيتنا بالمنصورة ، كان يوجد بسطحه فرن صغير مبنى بالأحجار والطين ..

وهكذا كانت كل البيوت فى ذلك الزمان .. كل الناس يخبزون عيشهم بأنفسهم . فى يوم الخبيز كنت وإخوتى نلتف حول أمنا .. ولا نبتعد لنلعب بعيداً ، إلا بعد أن تُناوِلنا رغيفاً ساخناً بداخله سمن وسكر .. كان طعمه جميلاً .. كنت ألتهمه سريعاً ، مطالباً أمى برغيف آخر ...

يعاود الجد حديثه لفهد .. يسأله :

ـ هل يا فهد ستشترى بعد ذلك أى شئ من منتجات إسرائيل أو أمريكا ؟

يجيبه فهد ، وقد بدأ النعاس يداعب جفونه :

ـ لأ يا جدى .

يبتسم الجد لرده ، واعداً إياه بأنه سيحضر له أنواعاً من الحلوى ، أحلى مذاقاً من الشيكولاتة الأمريكية . يبتسم فهد ، بينما يبدو على وجه فيصل قليل من الحزن والضيق ، يلمح الجد ذلك ، فيسرع مكملاً حديثه :

ـ هذه الحلوى يا فهد .. نصفها لك ، والنصف الآخر لفيصل .

يطلب الجد من سارة ، أن تتوجه بولديها لحجرة نومهما ، فتنفذ ما طلبه ، ثم تعود ثانية لمقعدها .

قال أيمن ، فى حوار له مع والده :

ـ توجد عوامل تحبط حماس الجماهير للمقاطعة .

ـ ما هى ؟

ـ بعض الحكومات العربية لا تحبذ هذا الاتجاه ، والبعض الآخر منها تحاربه ؛ تخوفاً من آثار المقاطعة .

ـ لِمَ ؟ ... إنها لمصلحة شعوبهم ! .

ـ يدّعون بأن هذا قد يُغضب أمريكا ؟

ـ و لِمَ تغضب أمريكا ؟ ... هى ذاتها تمتنع ـ هذه الأيام ـ عن استيراد الصلب من دول صديقة لها ؛ لتحمى صناعة الصلب فى بلدها .

ـ و بعض الحكومات تخشى من هروب الاستثمارات الأمريكية منها نتيجة للمقاطعة ! .

ـ لا يهم .. الاستثمارات العربية يمكن لها أن تعوضها .. بل وتتفوق عليها ... خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر .

و لا تنسى انتصار كونها مدرسة تاريخ ، فتنتهز الفرصة ، لتشارك فى الحديث ، من وجهة نظرها التاريخية . تحكى لهم الأيام المجيدة للشعب المصرى فى العشرينيات من القرن الماضى ، حين هب الشعب المصرى ، مقاطعاً البضائع الإنجليزية ، مؤيداً ومشجعاً بكل قوته مشروعات طلعت حرب الصناعية ، فى شتى المجالات ، وخاصة فى مجال تصنيع الأقطان ، وكافة مؤسسات بنك مصر .

يعقب والدها على أقوال ابنته مؤيداً ، ومضيفاً بأن شعلة الوطنية لم تخمد أبداً فى نفوس الشعب المصرى ،

ويذكر لهم بأنه عقب العدوان الثلاثى على مصر ، قرأ مقالاً لشاب مصرى ، كان يهدف إلى مقاطعة المنتجات الأجنبية ، بما فيها الأفلام الأجنبية .. ولعلمه بأن الأفلام تعتبر رافداً من روافد الثقافة ، فإنه استثنى منها الأفلام الجيدة والهادفة ، كان يهدف من المقاطعة إلى تشجيع وحماية الأفلام المصرية (٥).

يصمت الجد قليلاً ، ثم يواصل حديثه لهم قائلاً :

ـ هذا المقال القديم ، ألهمنى اليوم لفكرة ، نشترك جميعاً فى بلورتها وإبداء الرأى نحوها ، وهى بشأن تفعيل نداء المقاطعة ،

فما رأيكم ؟

على الفور رد أيمن متسائلاً :

ـ هل يعتمد هذا التفعيل للمقاطعة على دور تقوم به الحكومات العربية ؟

قال الجد ، وعلى شفتيه ابتسامة ذات معنى :

ـ لأ .. لأ .. أبداً .

---

(٥) مقال " حماية الأفلام المصرية وتقييد عرض الأفلام الأجنبية " لسراج النيل الصاوى عيسى . جريدة " المساء " المصرية فى ٢١ يوليه سنة ١٩٥٧م

يواصل الجد حديثه ، مذكراً إياهم بدور مصر الفعال ، أيام زعامات عبد الناصر ونهرو وتيتو وشوين لاى وسوكارنو ونكروما ... وغيرهم ، تلك الكوكبة من الزعماء الذين أشعلوا الحماس والوطنية فى نفوس شعوبهم ، كانت لهم وقفاتهم الجادة ضد أطماع الاستعمار ، لم يتبق من ذلك الزمن الجميل ، إلاّ " لجنة تضامن الشعوب الأفريقية الأسيوية " ، ومطلوب منا الآن تفعيل دورها .

قال أيمن لوالده :

ـ كيف ؟ أعتقد أن إمكاناتها المادية ضعيفة .

ـ غير مطلوب منها إلاّ طرح وترويج لسياسة اقتصادية جديدة ، تنفذها شعوب تلك البلاد ، وليس الحكومات ... هذه السياسة يمكن تسميتها " سياسة الانتقاء الوطنى " ...

قال أيمن ، وهو يركز انتباهه مع والده :

ـ اشتقت لمعرفة المزيد .

أكمل والده الحديث :

ـ هذه السياسة تعنى أن المواطن فى تلك البلاد الأسيوية الأفريقية عليه واجب وطنى ، فعندما يريد أن يقتنى سلعة من السلع ، فعليه أن ينتقيها مما ينتج ومما يصنع فى بلده أولاً ، فإن تعذر ، فعليه أن يشتريها من المنتجات الأسيوية الأفريقية .

قال أيمن ، موضحاً بعض الأمور الاقتصادية لوالده :

. أعتقد أن الأمر ليس بهذه البساطة يا والدى ، رأس المال الأجنبى المستثمر يشارك فى شركات لا تحمل الجنسية الأمريكية أو الغربية ، بل إن تلك الشركات تحمل جنسية البلد الذى يصنع المنتج فيه بصورته النهائية .. وهنا تكون الصعوبة .

رد عليه والده بثقة وهدوء :

. أعرف ذلك يا أيمن ... و أعتقد أن فى تلك البلدان وطنيين مخلصين .. فى الغرف التجارية بها وفى النقابات يستطيعون أن يكتشفوا ذلك .. فضلاً عن أن نشأة الاتحاد الأفريقى . حالياً . يمكن أن يكون له دور فى تعزيز هذه السياسة ... المهم أن نبدأ بأن تصل تلك الفكرة للجنة تضامن الشعوب الأفريقية الأسيوية أولاً .. ثم تبدأ هى الأخرى بنشرها .

قالت سارة ، والتى ظلت صامتة طوال الجلسة ، تستمع ، وتعى جيداً ما يدور من نقاش بين حميها و زوجها ، فهى تحمل بكالوريوس التجارة مثل زوجها ، قالت متسائلة فى حوار مع الجد:

. وما هى العوامل التى تساعد فى نجاح هذه السياسة يا عمى ؟

. الروح الوطنية التى هبت فى نفوس الشعوب العربية والإسلامية كلها ، منذ الانتفاضة الفلسطينية الثانية .. ومطلبهم فى مقاطعة السلع الأمريكية الإسرائيلية .. هذه الثورة العارمة يجب الاستفادة منها

.. لكن هل سيدوم هذا الحماس ؟
. قد يخفت الحماس مع الوقت ... ولكن الفعل فى المقاطعة سيتنامى بالتأكيد مع أول نجاح له .
. لابد وأن نصنع سلعاً بديلة للمنتجات الأجنبية . فهل نستطيع ذلك دون الحصول على رأس مال أجنبى ؟
. نحن يا سارة لا ينقصنا غير العزيمة ... أنا كرجل عسكرى سابق أرى فى نجاح جهاز الخدمات للقوات المسلحة إمكانية النجاح فى مواقع أخرى .. الجيش قام باستصلاح أراضٍ زراعية وتربية مواشٍ ودواجن ، وإقامة مخابز ، وقد ساعدت المحاصيل الزراعية واللحوم والخبز فى سد احتياجات الجنود وما يفيض يباع للجمهور بأسعار مناسبة .. ويمكن أن يحدث مثل ذلك فى هيئات كبيرة مماثلة .
. مثل ماذا يا عمى ؟
. مثل الجامعات المصرية .. بما لديها من خبرات ومراكز بحوث ... لماذا لا تدخل منافسة أو مشاركة فى إنشاء مصانع وشركات تعمل فى مجال تخصصات وخبرة بعض الكليات وتسهم فى تنمية مواردها ؟ .. ويمكن طرح أسهمها للأساتذة والطلبة .. ويكون ذلك بالنسبة للأشياء التى يحتاجها الطلبة أولاً .. وسيتم تصريف تلك المنتجات أولاً بأول .. فلديها أعداد مهولة من المستهلكين.

تدخلت انتصار فى الحديث قائلة :

. ويمكن لنقابة المعلمين أن تفعل ذلك .. فنحن لدينا عدد كبير من الأعضاء .. ونفعل نفس الشىء بالنسبة لاحتياجات التلاميذ المدرسية

. تابع الجد حديثه :

. ومثل هذا بالنسبة لنقابة الصيادلة ... بإنشاء شركات لأدوات التجميل والنظافة والأدوية .. وكذلك نقابة التجاريين والمهندسين ... الكل يجب عليه أن يُفعِّل دوره .. وأعتقد أن البنوك لن تتردد فى إقراض تلك المشروعات الجادة والمضمون نجاحها .

صمت الجد قليلاً ، بينما الكل ينظر إليه ، بعدها عاد لحديثه ، قائلاً :

. هذه المشروعات يجب التنسيق بينها فى داخل مصر ، وفى خارجها بالمنطقة العربية ، وأن يكون لديها أولويات فى التنفيذ ؛ وفقاً للأمن القومى العربى .

قال أيمن :

. وهذا ما أفكر فيه مع أحد أصدقائى السعوديين .. بضرورة عمل مشروعات زراعية تنتج لنا القمح .. ونفضل أن يتم ذلك بأرض السودان .

قال له والده :

. وهذا ما كنت أفكر فيه أنا أيضاً .. المقاطعة ليست شعاراً نردده فى المظاهرات .. المقاطعة نبض حى للجماهير يدفعنا للعمل ... وعلى الجميع فى كل المواقع أن تُفعِّل دورها لإنجاحها ، وإذا تم

تنفيذ ذلك بإقامة تلك المشروعات الوطنية .. فسوف تسكت القلة الرافضة للمقاطعة ، وتنهار حجتهم بأن المشروعات الأجنبية فى وطننا تشغل الآلاف من العمال الوطنيين ، حيث أن المشروعات الجديدة سوف تستوعب تلك العمالة بالإضافة إلى طابور العاطلين.

قال أيمن وهو يهز رأسه :

ـ نحن فى حاجة إلى مثل هذا التكتل الاقتصادى الكبير ... سبقتنا أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .. وهذه السياسة لو نجحت شعبياً فى مصر .. فإن نجاحها فى كل الدول الأسيوية والأفريقية سيتم ؛ لأن الظروف الاقتصادية فى تلك الدول متماثلة .

قالت انتصار :

ـ وتعاملاتنا مع تلك الدول ستكون أسهل ... يمكن التعامل بيننا وبينهم بعملات غير الدولار .

قالت سارة ، مستفسرة :

ـ لكن إسرائيل .. دولة آسيوية .. فهل سيتم التعامل معها أيضاً ؟

قال الجد :

ـ بالطبع لأ .. لأنها دولة تحتل أراضٍ عربية .. وأعتقد أن اللجنة التى ستتابع تفعيل الاقتراح يمكن لها أن تضع شروطاً تمنع التعامل مع الدول التى تحتل أراضٍ لإحدى الدول الآسيوية أو الأفريقية ... بل تمنع التعامل مع الدول التى تساعدها أيضاً على عدوانها .

سكت الجد لحظات ، ثم واصل حديثه ، قائلاً :

. هذه مجرد فكرة ... تحتاج إلى المختصين لصياغتها بأسلوب لا يتعارض مع المنظمات الدولية القائمة .. المهم ألا نيأس من طرحها ونشرها .. وقد يحتاج ذلك إلى سنوات .

و يحكى الجد لهم تاريخ اللجنة المصرية الدائمة التى أصدر قرار تشكيلها الزعيم جمال عبد الناصر عام ١٩٥٧م ، حيث دعت إلى أول مؤتمر لتضامن شعوب القارتين فى العام نفسه ، وقد انبثقت من المؤتمر منظمة التضامن الأفريقى الآسيوى ، وهى التى كان لها دور تاريخى فى حركة تحرير تلك الشعوب من نير الاستعمار . ويأمل الجد فى تضامن تلك الشعوب مرة أخرى ؛ للنهوض اقتصادياً ببلادها .

يرن جرس التليفون المحمول لانتصار ، تحدثها ابنتها سلوى الحامل عن بعض الآلام التى تشعر بها الآن ، وتخشى أن تكون هذه الآلام بداية لعلامات الوضع ، تخبرها انتصار بأنها ليست تلك العلامات ، تطمئنها ، ثم تستأذن للانصراف هى وابنها خالد ؛ ليذهبا لمنزلهما بسيدى بشر .. بينما يواصل الجد حديثه مع أيمن وسارة حول هموم الوطن العربى .. كانت مثل تلك الأحاديث فى تلك الأيام ، هى الشغل الشاغل لكل الأسر العربية .

٧

تعتاد انتصار النوم المبكر ... تشعر بإرهاق هذه الليلة ... رغم ذلك فهى تحرص على السهر فى انتظار عودة صلاح؛ لتطمئن عليه، و تتسامر معه أثناء تناوله العشاء ؛ لتحيطه بأخبار الأسرة .

تجلس أمام التليفزيون تقلب قنواته ، كلها تتحدث عن العدوان الإسرائيلى ، ومجزرة شارون فى مدينة جنين الفلسطينية ، وصمود ياسر عرفات المحاصر فى مقره برام الله ، حيث يقضى ليله هو ومن معه على أضواء الشموع ، بعد قطع القوات الإسرائيلية التيار الكهربائى عن مقره .

لا تجد جديداً بالتليفزيون، تغلقه ، تقوم لتتحدث مع ولدها خالد ، فلا تزال حجرته مضيئة ، تجده مستغرقاً فى النوم بسريره ممسكاً بكتاب كان يستذكر فيه ، تأخذه منه ، تضعه على مكتبه ، بعدها تطفئ نور الحجرة ، وتغلق الباب خلفها .

تلقى بجسدها المتعب على السرير ، تبحث بالراديو الترانزستور الصغير ، عن أغنية أو موسيقى هادئة ، تتصيد أذناها صوت أم كلثوم ، مطربتها المفضلة ، تشدو بأغنية وطنية تحبها .. تردد معها بعض مقاطعها همساً[٦] :

نحن نجتاز موقفاً تعثر الآراء فيه ... وعثرة الرأى تردى
فقفوا فيه وقفة الحزم ... وارموا جانبيه بعزمة المستعد

([٦]) الأغنية "مصر تتحدث عن نفسها" . شعر حافظ إبراهيم وألحان رياض السنباطى

ـ أين أنتِ الآن يا " ثومة " ... ؟ ... لو كنتِ معنا الآن لسمعنا أغنية عن الانتفاضة .

تحدث انتصار نفسها وهى تستمع للأغنية .

يصل لأسماعها صوت فتح باب الشقة . تنهض واقفة من السرير ، تسرع لتستقبل صلاح بترحاب . يبدو عليه الإرهاق هو الآخر ، يستبدل بملابسه العسكرية ملابس النوم . تحاول أن تجره فى الحديث ، يجيبها باقتضاب ، يخبرها بأنه تناول العشاء بالمكتب يطلب منها أن توقظه مبكراً ، ثم يلقى بجسده على السرير . تطفئ النور ، وتمدد جسدها هى الأخرى بجواره ، لم تمر دقائق إلاّ والاثنان قد راحا فى نوم عميق .

مع الصحيان المبكر لكل من بالبيت ، تحرص انتصار على أن تصل لمدرستها قبيل بدء طابور الصباح . تلزم المديرة المدرسين الذين سيشرحون بالحصة الأولى ، بالحضور المبكر ؛ لينظموا طوابير التلميذات بالفناء .

تصل فى موعدها تماماً ، تلقى تحية الصباح على المديرة ، التى تقف قريباً من باب المدرسة . تتوجه انتصار بعدها لتقف أمام التلميذات بالفصل الذى ستدرس لهن فيه . تلقى التلميذة إحسان قصيدة شعر وطنية عن القدس ، تستمتع انتصار بطريقة إلقائها ، قالت إحسان[٧] :

---

(٧) من قصيدة " القدس فى نبض مصر " للشاعر المصرى عبد الفتاح الكمونى

باسم قدس دق قلبى منشداً ... فى رحاب الحق يملى سؤددا

يا إلهى بات قوم مسهداً ... فى سبيل النصر لا يخشى العدا

ذاك شعب هز كوناً معرباً ... عن صراع الخصم فيما قد بدا

تستمر إحسان فى الإلقاء ، إلى أن تنتهى من القصيدة ، ويرتفع علم مصر خفاقاً ، حيث يهتف الجميع ثلاثاً " تحيا جمهورية مصر العربية " ... ثم يسرن فى طوابير ، على إيقاع دقات طبلة كبيرة ، إلى فصولهن .

داخل قاعة الدراسة تمسك انتصار بإصبع الطباشير ، تكتب تاريخ اليوم على السبورة ، " ٩ أبريل ٢٠٠٢م " ، لا تزال صورة الاعتداءات الوحشية ، وهدم المنازل بجنين ماثلة أمام عينيها ، تسأل التلميذات :

ـ من منكن تعرف أحداثاً هامة وقعت فى مثل هذا اليوم ؟

فى نفسٍ واحد ، تسرع بعض التلميذات بالإجابة صائحات :

ـ مذبحة دير ياسين .. ٩ أبريل ١٩٤٨م .

ترد عليهن انتصار " إجابة صحيحة " ، ثم تسير بخطوات هادئة، تجوب فيها الممرات الضيقة ، الموجودة بين صفوف التخت ، وهى طريقتها المفضلة أثناء الشرح ، تجلس التلميذات خلالها فى صمت تام ، و لا يسمع بالقاعة إلا صوت ارتطام حذاء انتصار ببلاط القاعة أثناء المشى ، وصوتها الذى يرتفع تارة ، ثم ينخفض تارة أخرى ؛ لجذب انتباه التلميذات .

بعد صمت دام قليلاً ، قالت انتصار وهى تمشى :
ـ ما أشبه الليلة بالبارحة .. مذبحة دير ياسين بالأمس .. ومذبحة جنين اليوم .. ستجدن الفكر الصهيونى المبنى على العدوان ، المتعطش لسفك الدماء ، هو هو لم يتغير .

تشرح لهن ، كيف أن سكان قرية دير ياسين ، البالغ عددهم وقتها ٤٠٠ مواطناً فلسطينياً ، باتوا ليلتهم آمنين ، لم يدر بخلدهم أن العصابات اليهودية قررت الاستيلاء على قريتهم ؛ لكونها تقع على تل قرب الممر الواصل بين القدس وتل أبيب ؛ لتكون مطاراً صغيراً ، لخدمة اليهود بمدينة القدس .

حوصرت القرية بقوات الأرجون بزعامة مناحم بيجين ، وبقوات شترن بزعامة إسحاق شامير ، لم يكن الهدف من هذا الحصار الاستيلاء على القرية فقط ، بل وتفريغها من سكانها ؛ بسفك دمائهم.

دافع سكان القرية العرب ، بقدر استطاعتهم ، دفاعاً مستميتاً لكن ما العمل ؟ والأسلحة التى فى أيديهم .. قليلة .. وقديمة ، ولا تستطيع الصمود أمام أسلحة العدو الحديثة ، الأكثر عدداً .

بل إن قوات اليهود المعادية ، هاجمت بيوت العرب ، مستخدمة أصابع الديناميت ، ناسفة منازل القرية بمن فيها . قُتِلَ من سكان القرية فى تلك الليلة أكثر من ٢٥٠ مدنياً ، من شيوخ ونساء وأطفال ، وألقيت جثثهم فى بئر القرية . والأعجب أن تقبض القوات اليهودية على ٢٥ من رجال القرية ، ثم تقتادهم فى سيارات كبيرة ليطوفوا بهم فى أحياء القدس زهواً بالانتصار ... هل تدرين ماذا فعلوا بهم بعد ذلك ؟

وجهت انتصار سؤالها للتلميذات ، لكنها لم تنتظر منهن إجابة أجابت هى عن سؤالها ، بقولها :

ـ أعدموهم ... نعم أعدموهم رمياً بالرصاص !.

ثم تواصل انتصار الحكى عن مذبحة دير ياسين ، بقولها :

ـ كتب مناحم بيجين فى مذكراته ، بأن تلك المذبحة ، ساعدت مع غيرها من المجازر الأخرى ، فى تفريغ البلاد من ٦٥٠ ألف عربى . وهكذا قتلوا وأخرجوا سكان فلسطين ؛ ليحل محلهم يهود من كل جنسيات العالم ، وتصبح دير ياسين حالياً جزءاً من مدينة القدس بعد توسعتها . ما رأيكن ؟ أليس حقيقة ما قلته من قبل .. ما أشبه الليلة بالبارحة . تماماً كما يحدث فى جنين الآن .

تواصل انتصار حديثها للتلميذات ، قائلة :

- من سخريات القدر أن يتولى كل من الإرهابيين ، اللذين قاما بتلك المذبحة رئاسة وزراء إسرائيل ، و أن يحصل بيجين على جائزة نوبل ... للسلام !! .

فى الفسحة الصغيرة ، وفى حجرة مدرسى التاريخ والجغرافيا حيث اكتمل حضورهم جميعاً، قال الأستاذ حماد، موجهاً حديثه لهن:

- بالأمس تناقشت مع أختنا وفيّة ، قلت لها بأن أيزنهاور ، رئيس أمريكا فى الخمسينيات ، تقدم بمشروع لملء الفراغ ... يهدف مشروعه بأن تحتل أمريكا مكانة إنجلترا فى بلدان الشرق الأوسط بعد رحيل الاستعمار الإنجليزى، وقد وعدتُها بأننى سأحضر لها صوراً من قصاصات لجريدة الأهرام ، تحمل عناويناً للأخبار والأحداث التى وقعت عقب قيام العراق بثورته فى ١٤ يوليه ١٩٥٨م . سوف تكتشفن ، بأن أمريكا يهمها نفط العراق .. والنفط فقط .. وليس نظام صدام الذى لم يكن موجوداً بالقطع عام ١٩٥٨م .

يمد حماد يده ، يخرج صوراً لقصاصات جرائد من حقيبته ، يقرأ عليهن ما جاء بالقصاصة الأولى بصوت مرتفع [٨]:

---

(٨) مانشيت الصفحة الأولى من جريدة الأهرام المصرية فى ١٥ يوليه ١٩٥٨م

. " الثورة فى العراق . سقوط الملكية وإعلان الجمهورية العراقية العربية . تأليف مجلس سيادة برياسة الفريق نجيب الربيعى ووزارة جديدة برياسة الزعيم عبد الكريم قاسم .

أول قرارات الحكومة الجديدة

(١) الاعتراف بالجمهورية العربية.

(٢) التمسك بالوحدة العربية

(٣) احترام مبادئ باندونج .

لندن : الثورة ضربة قاضية لمشروع أيزنهاور و حلف بغداد .

واشنطن : الثورة أخطر صدمة للغرب منذ تأميم قناة السويس" .

يصمت حماد قليلاً ، ويقدم لوفيّة صورة " مانشيت " الجريدة التى كان يقرأ منها ، ثم يوجه حديثه لهن :

. بعد ثورة العراق بساعات ... تحدث تحركات عسكرية لقوات أمريكية وبريطانية ... ما شأنهما بتلك الأحداث الداخلية لبلد من البلدان ؟؟ .. استمعن لما جاء " بمانشيت " جريدة الأهرام فى اليوم التالى للثورة ، ستجدن العجب .

يمسك حماد بصورة لقصاصة جريدة [٩] يقرأ منها بصوت مرتفع

([٩]) مانشيت الصفحة الأولى من جريدة الأهرام المصرية فى ١٦ يوليه ١٩٥٨م .

. قوات أمريكية تحتل لبنان . روسيا تطلب انسحاب القوات الأمريكية من لبنان فوراً . قتل نورى السعيد وفاضل الجمالى . قتل الشعب امرأة تطلق عليه النار ... ثم اكتشف أنها نورى السعيد . ٨ سفن حربية أمريكية تنزل ٥٠٠٠ جندى فى لبنان . الأسطول البريطانى يتجه نحو عدن والخليج الفارسى . أيزنهاور يعلن : نزول قواتنا فى لبنان عمل غير حربى .

يسألهن حماد مستنكراً التحركات الأمريكية والإنجليزية :

. ما قولكن ؟ ... هل النظام العراقى برئاسة صدام كان موجوداً فى ذلك الوقت ؟ ... وهل كان تحركهم لحماية أكراد العراق ؟

ثم يواصل حديثه لهن ، و أمامه قصاصات أخرى بصور "مانشتات" لجريدة الأهرام فى الأيام التالية للثورة العراقية ، يستعرضها أمامه ، وهو يتحدث :

. عندما قامت الثورة بالعراق ... كان عبد الناصر فى زيارة ليوغوسلافيا ، أدلى بتصريح خطير ، قال فيه : " أى اعتداء على الجمهورية العراقية اعتداء علينا " . تهدد روسيا بالحرب ، تصدر أوامر إلى جميع القوات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية بالاستعداد للحرب . تعترف روسيا والصين بالجمهورية العراقية العربية .... تتلاحق الأحداث سريعاً ، تنزل قوات بريطانيا بالأردن

وتحشد روسيا قواتها على حدود إيران وتركيا ، وينزل ١١ ألف جندى أمريكى فى تركيا للاشتراك فى العدوان ،

وتسمح إسرائيل لطائرات إنجلترا بالمرور فوق أراضيها للنزول بالأردن . يتم خطف جنديين أمريكيين فى بيروت ، وتطلق النيران على القوات الأمريكية بها . يفاجئ عبد الناصر العالم ، بسفره المفاجئ من يوغسلافيا إلى موسكو، واجتماعه بخروشوف، ومنها يطير إلى دمشق عاصمة الإقليم الشمالى، وبها يخطب فى الجماهير، قائلاً : القومية العربية أقوى من القنابل الذرية ... و تثور الجماهير العربية ضد أمريكا وإنجلترا .. ولا يتم العدوان على العراق .. خافت أمريكا على مصالحها .. وهو ما يجب عمله الآن إن أردنا أن نوقف عدوان أمريكا .. يجب أن تشعر بأن مصالحها ستهدد إن احتلت العراق .. أو أى بلد عربى .

و يدور نقاش بين وفيّة وحماد ، قالت :

ـ الزمن تغير ... كان فى السابق يوجد قطبان زعيمان للعالم ... الآن أصبحت أمريكا الزعيمة الوحيدة للعالم ... وأمرها مطاع .

يرد عليها حماد ، معارضاً :

ـ لا يا سيدتى .. لا مجال لليأس .. الآن عرف العرب بأن قوتهم فى وحدتهم .. والحكومات العربية وحدت رأيها بالنسبة لضرب العراق .. جميعها ترفض العدوان عليها .. ومصر أعلنت ذلك أكثر من مرة .

ـ أمريكا يا أستاذ حماد لا تطمع فى احتلال العراق ، تريد تغيير النظام فقط .

ـ يا سيدتى ... سلى زوجك الدكتور ، وهو أستاذ بالحقوق ، وتخصصه فى القانون الدولى العام .. سليه إن كانت رغبة أمريكا فى إبعاد الرئيس صدام والإطاحة بحكمه عن طريق القوة يتمشى مع القوانين والأعراف الدولية أم لأ ؟ ... سليه إن كان تدخل أمريكا وتصريحها بعملها على اغتيال رئيس العراق يحمل فى طياته أركان جريمة من جرائم القانون العام أم لأ ؟ سليه إن كان القانون الدولى العام يحظر استخدام مثل هذه الأفعال أم لأ ؟

أثناء نقاشهما ، تدخل الحجرة التلميذتان عنايات المراكبى وإحسان ، تتجهان مباشرة إلى انتصار ، تبدو الفرحة فى وجهيهما تتحدثان إليها بصوت خفيض ، تلمع عينا انتصار ، تبتسم ثم تقول لهما بفرح و بصوت مرتفع :

ـ مبروك ... مبروك يا بنات .

يلتفت كل من بالحجرة إلى انتصار والتلميذتين ، يتشوقون لمعرفة ما الذى حدث ، تخبرهم انتصار بأن الحاج سالم المتعهد .. امتثل أخيراً ـ بعد عناده ـ للمقاطعة ، ألغى المشروبات الأمريكية من الكنتين .. أصبح كل ما عنده مشروبات وعصائر وطنية فقط .

ترتسم البسمة على الشفاه .. بينما ينتفض حماد واقفاً ، وهو يصيح :

ـ الله أكبر ... الله اكبر .

تتحول الأنظار كلها إليه ، بينما يصمت هو قليلاً ، ثم يحدثهن بهدوء :

. هل تعرفن معنى ذلك ؟ ... هذا المثل البسيط يعنى الشئ الكثير يعنى أن المستهلكين من الأفراد هم الأقوى لو اتحدوا ... فإنهم يستطيعون التحكم فى أسعار السلع .. وفى ترويج أوعدم ترويج البعض منها .. بل الأهم من هذا ، إمكان أن يكون ذلك على مستوى الدول أيضاً .. فالدول المستهلكة لو اتحدت تستطيع أن تجبر الدول الكبرى الصناعية ، بأن تسير وفقاً للأسلوب الذى ترضاه الدول المستهلكة ... المشكلة هى كيف يتحدون ؟

تجيبه انتصار بسرعة :

. ممكن أن يتحدوا ، بتفعيل دور منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية .

ثم تحكى لهم رأى والدها فى المقاطعة للبضائع الأمريكية ، ورؤيته الأكثر فاعلية لو طُبِّقت " سياسة الانتقاء الوطنى " ، وتشرح لهم الفكرة بالتفصيل .

ينطلق الجرس معلناً انتهاء الفسحة الصغيرة ، فيتوقف النقاش، وتسرع التلميذتان عنايات وإحسان بالخروج من الحجرة إلى فصلهما، وكذلك بعض المدرسات اللاتى لديهن عمل بالحصة الرابعة.

٨

بعد انتهائهم من صلاة العصر ، جلسوا وبأيديهم أكواب الشاى يتحدثون كعادتهم فى الصالة الفسيحة ، الجد على مقعده المفضل لديه ، ومن حوله تجلس ابنته انتصار وشقيقها أيمن ثم سارة . أما الجدة فقد آثرت النوم وقت القيلولة ، هى وحفيداها الصغيران فهد وفيصل .

نظر الجد إلى ساعته ، بعدها سأل ابنته عن سبب تأخر خالد عن الحضور ، أجابته :

ـ لقد أكد لى فى الصباح ، بأنه سيلقانى هنا ؛ لنعود سوياً للمنزل.

ثم أضافت :

ـ لعله يشارك فى المظاهرات كأمس .

هذا الوقت الذى يقضونه معاً للراحة ، والدردشة فى شتى المجالات ، الخاصة والعامة ، يشعرون خلاله بالدفء العائلى ... يتزودون فيه بخبرة الأيام ، التى يقدمها لهم الجد فى حكاياته المثيرة، وآرائه المستنيرة ... ويستظلون بحنان الجدة ، عندما تؤانسهم فى جلساتهم ، فحنانها يشع من كل همسة ، ومن كل كلمة تنطق بها .

قالت سارة ، موجهة حديثها للجد :

ـ ليلاً .. وقبل أن أنام أمس ، استرجعت يا عمى كل كلمة ذكرتها عن فكرتك بشأن " سياسة الانتقاء الوطنى " .. بدون مجاملة هذه الأفكار لو نُفِّذت ستكون شيئاً هاماً للدول النامية ...

تؤيدها انتصار ، تخبرهم بما حدث اليوم بالمدرسة ، من امتثال متعهد المقصف للمقاطعة ، وبيعه المنتجات المصرية فقط . تطلب منهم التخيل ، لو أن هذا يحدث فى كل مقاصف المدارس والجامعات وكل الأندية .. وهو أمر سهل ويمكن حدوثه .

قال أيمن وعلى شفتيه ابتسامة :

ـ أجمل ما فى هذه السياسة ، أنها تطبق وتحقق أهداف المقاطعة الحالية دون إعلان عنها .. وهل يلومنا أحد لو فضلنا شراء بضائعنا المصرية أولاً ؟

انتشى الجد لما يسمعه من كلمات الإطراء حول فكرته ، قال :

ـ هذه مجرد فكرة ، يمكن للمختصين أن يتناولوها بالدراسة الجادة المتعمقة .. ثم نشرها بين الشعوب الأفريقية والآسيوية .. ففيها الفائدة لنا جميعاً .

قالت سارة :

ـ يجب الإسراع ، فنحن وقعنا على المعاهدات والاتفاقيات المنظمة للتجارة .. وسوف تلتزم الدول الموقعة فى عام ٢٠٠٥م بما جاء بتلك الاتفاقيات . الكثير من بنودها لا يخدم الدول النامية .

يقطع حديثهم رنين جرس تليفون انتصار المحمول ، المتحدث زوجها صلاح ، يسألها فى لهفة عن خالد ، أجابت بأنه لم يزل بالكلية ، يطلب منها فى عجلة بضرورة إبلاغه تليفونياً فور عودته ... تسمع انتصار أثناء حديثه ، أصوات جلبة وصراخ ، تسأله

مستفسرة ، يجيبها باقتضاب :

ـ لا شئ .. لا شئ .. سلام .

فى أعقاب المكالمة ، تجلس انتصار ساهمة شاردة ، تحملق فى اللا شئ .. تشعر بالانقباض .. فمكالمة صلاح لها للسؤال عن خالد أمر لم تعتده ، وسماعها لأصوات عالية وصراخ أثناء حديثه معها ، يجعلها أكثر قلقاً على ابنها ، تظهر آثار ذلك القلق على أسارير وجهها ، تحاول سارة طمأنتها ، بقولها :

ـ احتمال ذهابه لزيارة أخته سلوى ، أو ربما توجه للمنزل بسيدى بشر.

تسرع انتصار بالاتصال بابنتها .. تعرف منها أنه لم يزرها اليوم ، تتصل بتليفون بيتها بسيدى بشر .. رنين جرس التليفون يستمر لمدة طويلة .. لا أحد بالمنزل .. تزداد توتراً .

من داخل حجرتها ، تنادى الجدة على خالد ، تعتقد بأنه يجلس معهم بالصالة ، لقد استيقظت وتريد رؤيته ؛ لتحادثه ويحادثها كعادتهما . تدخل إليها انتصار ، تخبرها بما حدث ، تهلع الجدة . يفتحون التليفزيون ، ويقلبون قنواته ، بينما يتوجه أيمن ليحضر الراديو من حجرته ، يفتحه ويدير مؤشره ، يتنصت على نشرات الأخبار . مع دقات " بج بن " تذيع لندن عن اشتباكات وقعت بمدينة الإسكندرية ، بين طلبة الجامعة والشرطة ، وأن عدداً كبيراً من الطلبة قد أُصيب ، كما حدثت بعض الوفيات منهم .

تنهار انتصار ، تفصح عن رغبتها فى الخروج للبحث عنه بالمستشفيات ، يمهلها أيمن دقائق حتى يتمكن من ارتداء ملابسه ليخرج معها . يتوجه لحجرته ، لكن رنين جرس التليفون بالصالة يوقفه . يمسك السماعة بلهفة ، يصيح بهم :

ـ خالد ... خالد يكلمنا .

تسرع انتصار لتمسك السماعة من أخيها ، تحادث ابنها ، تطمئن عليه ، يخبرها بأنه قد يتأخر فى الحضور قليلاً ، يحكى لها بإيجاز ما يحدث .

ـ لن أطمئن على خالد .. إلاّ إذا حضر أمامى .

قالت لهم الجدة ذلك ، عندما أبلغوها باتصاله تليفونياً ، وأنه بخير .

يحاول أيمن تحريك مؤشر الراديو ؛ للبحث عن المحطات التى تذيع نشرات للأخبار ، وتنتقل سارة بين الفضائيات العربية والأجنبية للسبب نفسه ، بينما تتصل انتصار بزوجها ، لتخبره باتصال خالد تليفونياً بها لتطمئنه ، يسألها صلاح بعفوية سؤالاً أعادها لحالة القلق التى كانت عليها من قبل ، قال :

ـ أهو سليم ؟ .. ألم يُصب ؟

صمتت ولم تعقب ، أسرع صلاح بقوله :

ـ الحمد لله ... الحمد لله على كل حال ... سوف أتأخر هذه الليلة يا انتصار ... سلام .

ينهى المكالمة ، وتظل انتصار قلقة على ابنها حتى تراه .

تطلب منهم الجدة مساعدتها لتجلس معهم ، يسرع أيمن إليها تستند إليه و هى تنزل من السرير ، ترفض أن تجلس على مقعدها المتحرك ، تفضل أن تجلس على المقاعد المريحة بالصالة، يعطيها أيمن عكازيها فتضعهما تحت إبطيها ، يرافقها حتى تجلس حيث الجميع يتابعون نشرات الأخبار بالتليفزيون ، يضيف أيمن على ذلك، بوضع الراديو الترانزستور على أذنه ، لعله يستزاد بمعلومة جديدة . تسخر الجدة قائلة :

ـ الأحداث على بعد مئات الأمتار منا ، ونحن نحاول معرفتها من البلدان البعيدة ! .

يدق جرس الباب ، دقات طويلة متتابعة ، إنه خالد ، تسرع انتصار بفتح الباب ، تفتش كل جسده بنظرها ، تسأله فى هلع ، وهو لم يزل بالباب :

ـ حصل لك شئ ؟ .. أنت سليم ؟

تنهرها الجدة :

ـ دعيه يا انتصار يدخل .. حمداً لله على سلامته .

تحتضنه الجدة ، وتدمع عيناها ، تتحرك شفتاها ببعض الأدعية .

يقبل جده ، يحيى خاله أيمن وزوجته ، يسألهما عن فهد وفيصل، تضحك سارة وهى تجيبه :

ـ خوفنا عليك جعلنا ننسى أن نوقظهما ...

ثم تسرع إلى حجرتهما ؛ ليقوما من النوم ، ،

ليستذكرا دروسهما .   يطلب الجد من خالد ، تناول طعامه أولاً ، حيث لا يزال نصيبه منه على المائدة . يعتذر خالد بأنه ليس لديه الآن شهية للأكل ، أو للشرب .

يسأله أيمن :

ـ ما الذى حدث بالضبط ياخالد ؟ ولِمَ ؟ .. المظاهرات بالجامعة لم تتوقف منذ الانتفاضة الفلسطينية .. فلماذا يحدث كل هذا اليوم ؟

يجيبه خالد بتلقائية :

ـ هذا السؤال سألته لنفسى ... لِمَ حدث ذلك ؟ .. كان الطلبة اليوم يقفون بحرم الجامعة حوالى الساعة الثالثة ، ينددون بإجرام إسرائيل ، وبانحياز أمريكا الأعمى لها ، ويرفضون زيارة كولين باول وزير خارجية أمريكا لمصر . كانت قوات الشرطة تحيط أسوار الجامعة ؛ لمنع خروج المظاهرات خارجها ... مثل هذا حدث كثيراً ، ودون أن تحدث اشتباكات بين الطلبة والشرطة .

قال الجد الذى كان يصغى باهتمام لحديث خالد :

ـ إذن ما الذى استجد ؟

أجابه خالد :

ـ كنا ننوى التوجه إلى المركز الثقافى الأمريكى ، فى مظاهرة سلمية ، لنقدم رسالة احتجاج ، أكد الطلبة أن مسيرتهم ستكون سلمية ... أحد أساتذة الجامعات أبدى رغبته فى اصطحابهم فى المسيرة السلمية ، طلب منهم الوعد بأن تكون المسيرة سلمية ، عندئذ ردد المتظاهرون .. (سلمية .. سلمية .. سلمية) .

يبتسم خالد ، وهو يكمل حديثه :

ـ كنت أنا و زميلى حسان فى المؤخرة .. لم نسمع هتافات الطلبة جيداً .. فهتفنا .. أنا وهو .. (سلبية .. سلبية) ، إلى أن اكتشفنا خطأنا الذى ضحكنا عليه .

تبدو على وجهه علامات الحزن والغضب ، وهو يقول :

ـ لا أدرى ما الذى حدث بعد أن خرج الطلبة من باب كلية الحقوق سمعت صراخاً مع انطلاق خراطيم المياه والقنابل المسيلة للدموع، وطلقات الرصاص المطاطى . جريت أنا وزميلى حسان لنبتعد عن الدخان ، لأنه مصاب بحساسية فى صدره ، قوات الشرطة حاصرتنا ، لم نجد مفراً ، إلاّ أن نختبئ فى البيوت المطلة على الجامعة ، وجدنا العشرات من الطالبات الهاربات من المعركة بها، كان السكان يرحبون بالطلبة ، فتحوا لهم شققهم ، قدموا لنا المياه، والبعض قدم مشروبات غازية، عرضوا استخدام تليفوناتهم للاتصال بالأهل ، كنت أنا وحسان وثلاث طالبات فى ضيافة سيدة مسنة ، تعتنى بها خادمة مسنة أيضاً ، قالت السيدة أن أسعد أوقاتها ، هو حين تجلس فى الشرفة ، تشاهد الطالبات والطلبة ؛ لأنها تتذكر شبابها عندما كانت طالبة بالجامعة ، كانت تضحك عند مقارنتها بين عدد الطالبات والطلبة فى زمانها والآن .. علمت منها أن زوجها استشهد فى حرب ١٩٦٧ ،

حيث كان ضابطاً بالقوات المسلحة ؛ لذا فقد حرصت على أن يلتحق أولادها الثلاثة بالكلية الحربية ، شاهدت صورة زوجها معلقة بالحائط وبجوارها صور لأبنائها الضباط ، وهم بملابسهم العسكرية .. طلبت منا سرعة الاتصال بأهلنا .. ثم تحدثت معنا فى موضوعات كثيرة .. هل تعرفون بماذا نصحتنا ؟

قالت انتصار :

ـ ما هى ؟ ... المذاكرة ؟

رد خالد :

ـ لأ ... قالت إن المظاهرات أمر انفعالى ... غضب وثورة ... ثم هدوء وكأن شيئاً لم يكن .. يجب أن يُترجم الغضب إلى فعل مادى، مثلاً مقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية ، أو التبرع للفلسطينيين .

و يستمر خالد فى حكيه عن أحداث تلك الساعات ، قال :

ـ كنا ونحن هناك نستمع لأصوات العشرات من سيارات الإسعاف المسرعة لنقل المصابين .. وأصوات ارتطام الحجارة التى يقذفها المتظاهرون .. وكسر الزجاج .. وطلقات الرصاص المطاطى .. حاولت أن أفتح شيش الشرفة لأشاهد ما يحدث .. لكن السيدة رفضت خشية أن أصاب بطلقة طائشة .. بعد أن هدأ الحال .. تسحَّبنا إلى خارج الشقة .. بعد أن شكرنا السيدة على ضيافتنا .

أسرعت أنا وحسان إلى الكورنيش .. حيث كانت تجمعات من الشرطة تقف ناحية الترام ... فى طريقنا شاهدت الشوارع فى منظر لن أنساه أبداً ، فالسماء كأنها أمطرت وابلاً من الحجارة ، وزجاج السيارات الصغير متناثر على الأرض والأرصفة ، أما السيارات المهشمة فكانت كئيبة تبكى حظها العاثر ؛ لوقوفها بجوار سور الجامعة .

يقطع خالد حديثه ، وينتبه هو والجميع لما يذيعه التليفزيون المصرى عن الأحداث المؤسفة لمصرع طالب جامعى هو محمد السقا وإصابة ٢٨٣ طالب وجندى وحدوث تلفيات بـ١٧٠سيارة ، و ١٦٥ متجراً مجاوراً للجامعة .

يعلق الجد على هذه الأحداث ، بكلمات قليلة ذات معنى :

ـ أما آن لمصر أن تسمح بحق التظاهر ؟ ... وأن نتعلم كيف نتظاهر كسائر الدول المتقدمة ؟

فى طريقهما لمنزلهما بسيدى بشر ، يصارح خالد والدته بأن أحد الجنود ضربه بالعصا على ساقه اليمنى ، وأنه خجل أن يحكى ذلك أمام جده وجدته ، وأنه يشعر بألم بموضع الإصابة . عندما وصلا للمنزل ، وشاهدت انتصار الإصابة ، قالت له :

ـ هذه كدمة خفيفة .. عندى كريم لمثل تلك الكدمات ، دلِّك بالكريم موضعها .. وسوف تعافى بإذن الله .

يفعل خالد ما طلبته أمه .. ويلقى بجسده المتعب على سريره بعد أن تناول ساندوتشاً أعدته له أمه .

أما انتصار ، فالأمر يختلف بالنسبة لها ، فالنوم لم يداعب جفونها هذه الليلة ، فهى إنسانة رقيقة حساسة ، فهل يعقل أن تنام فى هذا اليوم الأسود الحزين ؟

تتحدث فى صمت مع نفسها ، تطرح تساؤلات عن الأحداث تحمد الله على أن ابنها قد عاد لبيته ، لكن ماذا لو لم يعد ؟ .. ماذا سيكون شعورها لو أصيب ؟.. وشعورها لو.. لا تستطيع أن تكمل أو تتخيل ... يسرح خيالها إلى حال والدة محمد السقا ... ياترى كيف حالها ؟ .. " اللهم ثبت إيمانها " . تدعو لها فى سرها هى وكل الأمهات اللاتى يرقد أبناؤهن بالمستشفيات هذه الليلة .. يسرح خيالها أكثر إلى أمهات شهداء الانتفاضة .. ثم تسرح فى كلمات تلك السيدة التى آوت ابنها الساعات العصيبة بشقتها .. والتى قالت بوجوب ترجمة الغضب إلى فعل مادى مثل مقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية ، أو التبرع للفلسطينيين .

تهدأ نفسياً عندما تقرر التبرع لفلسطين بمبلغ من المال ؛ شكراً لله لسلامة ولدها ، أما عن المقاطعة فهى تلتزم بها من قبل.

عندما عاد صلاح متأخراً ، واستلقى على السرير بجوار زوجته، ظلا يتحدثان عن الأحداث ، وعندما عاتبته انتصار على إصابة هذا العدد الكبير ، و وفاة أحدهم من قِبل الشرطة .

رد عليها صلاح :

. لا أعرف كيف حدث ذلك ، لأننى أُستدعيت متأخراً ، لكن الذى أعرفه أننى كنت أرى وجه خالد فى وجوه كل الطلبة ، وأرى وجه سلوى ابنتى فى وجوه كل الطالبات .. كانت تصرفاتى وفق هذا الإحساس ، رغم الحزم المطلوب .

٩

تستيقظ انتصار مبكراً ؛ لتصلى الفجر حاضراً . قبيل انتهائها من الصلاة ، تدعو الله بأن يحفظ أهلها من كل سوء ، فلا تزال أحداث الأمس عالقة بذهنها ، آملة بألا تقع اشتباكات أخرى بين الشرطة والطلبة . يخطر ببالها ما يحدث من أهوال للفلسطينيين ، فتدعو لهم بالنصر . كما تدعو لأمها بالشفاء العاجل هى وكل الأمهات ، وبأن تكون ولادة ابنتها طبيعية . بعد أداء الصلاة تظل جالسة على السجادة ، مترددة فى إيقاظ ولدها خالد ، كم تود ألا يذهب اليوم إلى كليته ، لقد طلب منها بأن توقظه مبكراً ؛ ليحضر محاضرات هامة فى الصباح ، مؤكداً عليها ذلك مرة أخرى ... توقظه . الحقيقة التى لا تعلمها أنه يرغب فى التوجه للكلية ؛ للاطمئنان على زملائه ، ومعرفة أخبارهم .. من منهم الذى أصيب ... ومن منهم الذى قبضت الشرطة عليه .

بعد انتهاء أفراد الأسرة من ارتداء ملابسهم ، تعد انتصار المائدة للإفطار ، قبل صبها للشاى بالأكواب ، تدعو زوجها وولدها إلى الحضور لشربه ساخناً . يجلس الثلاثة إلى المائدة ، يتبادلون الكلمات المعتادة التى يقولونها كل صباح ، لكنهم لم يكونوا خلالها فى صفاء ذهنى ككل يوم ، فحيز من تفكيرهم الآن مشغول بأمور لا يظهرونها . صلاح الذى نجا من أحداث الأمس ، رغم إلقاء الحجارة عليه ، يتمنى ألا تقع تلك الأحداث مرة أخرى . بينما ينشغل خالد

بمستقبل زملائه الذين يرقدون بالمستشفى . أو الذين تم إيداعهم بالسجن ، فهم سيتأثرون حتماً بالنسبة لدراستهم . أما انتصار فهمّها الشخصى الأول أن تنفضّ تلك المظاهرات ؛ لتطمئن بالتالى على زوجها و ولدها ، ولتتفرغ لرعاية سلوى فى الأيام الأخيرة من حملها ، كم تتمنى أن تكون بجوارها لحظة ولادة مولودها الأول .

يسود الصمت بينهم فترة غير قصيرة ، وهم جالسون إلى المائدة ، تقطعه انتصار قائلة لزوجها :

ـ لم أشأ أن أزعجك أمس ، وأخبرك بإصابة خالد فى ساقه ... إصابة طفيفة .

يسرع خالد مازحاً مع والده بقوله :

ـ سأطالبك بتعويض عن تلك الإصابة ، بعد إذن حضرتك .

ـ تعويض ؟ ... ومنى أنا ؟ ... لِمَ ؟

ـ لأن الذى أصابنى هو أحد جنودكم ... ضربنى بعصاه على ساقى ... هل هذا يرضيك ؟

ـ وهل يرضيك يا خالد ، أن يقذف الطلبة والدك بالحجارة ؟ وكادت إحداها أن تصيبنى فى رأسى ، لولا أن الله سلم .

ـ الشرطة هى التى بدأت العدوان برش خراطيم المياه على الطلبة أولاً ...

ـ بل أنتم الذين بدأتم مخالفة القانون بالخروج فى مظاهرة خارج أسوار الجامعة ... ولولا خروجكم لما حدث شئ .

توقف انتصار الحديث الدائر بين زوجها وولدها ، وقد انتهت من إعداد ساندويتشها الذى ستتناوله بالمدرسة ، قالت لهما :
ـ ليس هذا وقته ... الساعة الآن السابعة والربع .. سوف نتأخر.

عندما تقابلت انتصار مع بعض زميلاتها الواقفات بحوش المدرسة ، استعداداً لبدء طابور الصباح ، وجدتهن جميعاً يتحدثن عن وقائع الأمس الأليمة ، حوت الأحاديث عن أرقام مُبالغ فيها ، عن أعداد الذين أصيبوا أو الذين توفوا من الطلبة أثناء المظاهرة وأرقام أخرى مُبالغ فيها أيضاً عن عدد المقبوض عليهم . لاحظت أن البعض منهن ، اشترين صحف الصباح على غير العادة .

تعلم منهن أن سوسن ـ مدرسة اللغة الإنجليزية ـ أصيب ابنها الطالب بالجامعة إصابة خطيرة ... و يرقد حالياً بالمستشفى الجامعى، إنه ابنها الوحيد ، حيث لم تنجب خلافه . يدعون له بالشفاء من أجل أمه المسكينة ، التى لا تفارق الابتسامة شفتيها ، ولا يخرج من فمها إلا الكلام الطيب .

أثناء ذلك تأتى إليهن وكيلة المدرسة الأستاذة ابتسام ، مستفسرة منهن عن الخاليات من التدريس بالحصة الأولى ؛ لتحل إحداهن بالفصل ، الذى كانت ستدرس به سوسن ، حيث أنها بأجازة طارئة اليوم . تسرع انتصار بإبداء رغبتها فى أن تحل مكانها .

تلاحظ انتصار فور دخولها الفصل ، أن تلميذاته اليوم على غير العادة ، فهى تعرفهن من قبل ، لتدريسها مادة التاريخ لهن . فالوجوه البشوشة تغيرت ملامحها فى هذا الصباح ، حيث حملت علامات كثيرة من الحزن والغضب الشديد .

تحاول وهى تحدثهن أن تبتسم ؛ لتستعيد تلك البشاشة المفقودة ... لكن دون جدوى ! . تستفسر منهن عن سبب هذا الحزن والغضب البادى على وجوههن ، إجابتهن شبه واحدة ، كلها تدور حول أحداث الأمس الكئيب ، وتساؤل واحد :

ـ لِمَ يحدث هذا الاشتباك والهتافات كلها كانت ضد أمريكا وإسرائيل؟

كان حزن الشارع السكندرى فى هذا الصباح عميقاً ؛ نتيجة للأعداد الكبيرة من المصابين من أبنائه ، وبالتالى غضبه من الشرطة فى كيفية تعاملها مع الحدث . كانت انتصار فى موقف لا تحسد عليه ، فزوجها ضابط الشرطة كان أحد المشاركين فى قمع التظاهر ، ومنع خروج الطلبة خارج أسوار الجامعة . إنها تصدقه القول فى كل كلمة قالها بالأمس عن رؤيته وإحساسه وقت الاشتباك بالنسبة للطلبة والطالبات .. فكلهم كانوا لديه مثل خالد ..

وكلهن كن لديه مثل سلوى

لم يكن أمام انتصار كى تمحو علامات الحزن والغضب من وجوه التلميذات ، وإعادة البشاشة لوجوههن النضرة ، إلا باسترجاع وقائع التاريخ ذات المصداقية ، والتى تجيد الحكى عنها لتظهر لهن أن رجال الشرطة ، مهما حدثت تجاوزات من بعضهم ، فهم أولاً وأخيراً من نسيج مصر الوطنى .

قالت انتصار متسائلة ، وهى تسير ببطء فى الطرقات الضيقة بين المقاعد :

ـ ما رأيكن ؟ ... هل أحكى عن مواقف وبطولات الشرطة أثناء الثورة العرابية ؟ أو خلال الحرب العالمية الأولى ؟ أو عن قصة كفاحها فى ثورة ١٩١٩ ؟ أو عن معاركها الأخرى فى مقاومة الاحتلال الإنجليزى ؟ أو ...

قاطعتها إحدى التلميذات قائلة :

ـ من فضلك يا أستاذة ، أذكريها لنا كلها ... فنحن لا نعلم عنها شيئاً

قالت انتصار :

ـ وهذا ما كنت سأفعله ... بالنسبة للثورة العرابية ... هل تعلمن أن الشرطة انحازت للثورة العرابية منذ بدايتها ، فقد شارك القائمقام سعد أبو جبل والقائمقام على داود ـ وهما من شرطة الإسكندرية ـ ضباط الجيش فى إرسال البرقية ، التى أرسلت إلى الخديوى توفيق فى مايو ١٨٨٢ ؛ لإعلانه بتمسكهم بالزعيم أحمد عرابى وزيراً للحربية ، مما كان له الأثر فى إذعان الخديوى لمطلبهم ؟ .

وتواصل انتصار سردها لتلك الأحداث :

. وهل تعلمن عندما احتل الإنجليز الإسكندرية فى ١١ يوليه ١٨٨٢، وأصدر الخديوى تعليماته للمصريين بالتخلى عن الجيش، والاستسلام لجيش الاحتلال، أن اجتمع المديرون وممثلون عن الجيش والشرطة فى مبنى وزارة الداخلية، وأعلنوا رفضهم لمطلب الخديوى بالاستسلام، و وجوب مقاومة الاحتلال ؟ . وفى الإسكندرية عندما انسحب الجيش المصرى إلى مديرية البحيرة ، قام قائد الشرطة بها القائمقام سعد أبوجبل بواسطة بعض أفراد الشرطة ، الذين ارتدوا الملابس المدنية ، بالتجسس على جيش الاحتلال ، ونقل أخبارهم إلى العرابيين فى كفر الدوار ، وكان من أنشط هؤلاء الرجال الشرطى ندا خطاب ، الذى حوكم بعد أن خمدت شعلة الحركة العرابية ، ونفذ فيه حكم الإعدام [(١)]

تسكت انتصار فترة زمنية قصيرة ، وهى تسير بخطاها الهادئة، مسترجعة بعض الأحداث التى وقعت فى الحرب العالمية الأولى ، بينما تتجه أنظار التلميذات إليها ، ثم تحكى لهن ما حدث خلال الحرب ، من تأهب بعض المواطنين المصريين لمقاومة الإنجليز ؛ لنيل الاستقلال والحرية ، وقد تحالف معهم بعض رجال الشرطة . كان تجمعهم بالواحات الداخلة والواحات البحرية ،[١٠]

---

[١٠] [(١)] نشرة الشرطة فى معارك النضال الوطنى . العلاقات العامة . مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

وقد ساعدت الشرطة هؤلاء الرجال من أفراد المقاومة بمدهم بالسلاح ، وبنقلهم للجهات التى يبتغونها ... إلى أن تكشف أمرهم ، وقدم بعضهم للمحاكمة ... ونتيجة لتلك الأحداث أُعفيت وزارة الداخلية من الإشراف على تلك المناطق الصحراوية ، وأُخضِعت للسيطرة البريطانية المباشرة .

وتستمر انتصار فى سرد تلك البطولات ، التى شارك فيها بعض ضباط الشرطة ، إلى أن تصل إلى ثورة ١٩١٩ ، فينتابها الحماس ، وهى تحكى قصصها البطولية ، بينما التلميذات فى حالة اندهاش وانبهار ، من تلك الشجاعة الخارقة ، والوطنية الجارفة ، لهؤلاء الرجال .

قالت انتصار وهى واقفة تتكئ بيديها على مسند المقعد المخصص لها :

ـ كتب " عبد الفتاح عنايت " الذى حُكم عليه بالإعدام ، ثم خُفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ... هل تعرفونه ؟ .. إنه أحد المتهمين فى قضية مقتل السردار البريطانى ... كتب فى كتابه " قصة كفاح " ، بعض ذكرياته عن ثورة ١٩١٩ ، وعن موقف ضباط الشرطة الوطنيين .. قال :

" أحب بهذه المناسبة أن أسجل موقف الضباط المصريين من هذه الحوادث ، فقد كانت لهم مواقف وطنية مشهودة مع الثوار والمتظاهرين ،

وقد كان من رأيهم التخلى عن وظائفهم لينزلوا مع المصريين فى ثورتهم ، ولكنهم عدلوا عن هذه الفكرة لأنهم أدركوا نتيجة هذا العمل ، وهو سيطرة الإنجليز التامة على البوليس المصرى ، وقد يستطيعون وهم فى مناصبهم أن يكشفوا خطط الإنجليز ، وأن يخففوا عن قسوتهم وغطرستهم " .

تصمت انتصار قليلاً ، ثم تواصل سردها لتلك الأحداث ، قائلة :

ـ أكد هذا المعنى المندوب السامى البريطانى " الجنرال اللنبى " فى تقريره الأول الذى بعث به للخارجية البريطانية فى أوائل الثورة حيث أثبت به وجود عناصر وطنية النزعة بين رجال الأمن ، وأن أغلب رجال الشرطة يتعاطفون مع القضية الوطنية .

وتواصل انتصار حكيها قائلة :

ـ سأذكر أمثلة لتلك البطولات العديدة ... منها موقف إسماعيل حمد ، مأمور مركز زفتى ، ذلك الضابط الوطنى الذى تعاون مع اللجنة الوطنية التى شكلت بالمركز . وعندما احتلت القوات الإنجليزية زفتى ، وطلبت منه القبض على الثوار ، تظاهر بالتعاون معهم .. وسلمهم عدداً من الوشاة والخونة .. وساعد الوطنيين الثوريين على الاختفاء .. فعل ذلك هو وأحد الضباط يدعى أحمد جمعة . واستشهد فى أحداث الثورة " محمد حمدى " وكيل مديرية المنيا ..

وقُدم العديد من الضباط إلى المحاكمة ... منهم من صدرت عليه أحكام بالإعدام مثل الصاغ محمد كامل محمد مأمور بندر أسيوط ؛ لوقوفه إلى جانب الوطنيين وتسليحهم ببنادق الشرطة ، ونُفذ فيه الإعدام رمياً بالرصاص .. عشرات من القصص البطولية .. وعشرات ممن صدرت عليهم أحكام بالسجن لنفس تلك الأسباب لموقفهم الوطنى الجليل .

تسير انتصار خطوات هادئة إلى نهاية القاعة ، ثم تعود إلى مكانها السابق ؛ لتواصل الحكى ، قائلة :
. و تتزايد مشاركة رجال الشرطة مع الشعب ، فى مقاومة الاحتلال بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر ١٩٥١ ، بمعرفة رئيس الوزراء مصطفى النحاس ، خاصة فى منطقة القناة ، التى كانت تحتلها القوات البريطانية . فى إحدى المعارك مع الجنود الإنجليز ، وهى معركة الإسماعيلية يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥١ استشهد ٨ من رجال الشرطة ، وفى معركة السويس يوم ٣ ديسمبر ١٩٥١ استشهد ٧ من رجال الشرطة ، وفى اليوم التالى نشبت معركة أخرى بالسويس ، عندما كان يشيع المواطنون أحد الشهداء ، واستشهد فى المعركة اثنان من رجال الشرطة . وفى الإسماعيلية فى ١٧ ديسمبر من نفس العام ، حدثت معركة أخرى، استشهد فيها اثنان من رجال الشرطة ... دارت معارك كثيرة سقط فيها من أفراد المقاومة ، عدد كبير من الشهداء .

. كان رجال الشرطة ورجال المقاومة ، فى موقف وطنى واحد ..
اختلطت دماؤهم الزكية .. من أجل حرية وطنهم.

ثم تحكى لهن انتصار ، معركة الإسماعيلية الكبرى ، يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، التى أصبحت عيداً للشرطة فيما بعد ، ولا تنسى أن تذكر لهن أيضاً مواقفهم البطولية فى مواجهة العدوان عام ١٩٥٦ وخاصة ببورسعيد ، وكذلك فى عدوان ١٩٦٧ ، وقد استشهد ٥٣ من ضباط وجنود الشرطة أثناء إخمادهم الحرائق بصهاريج البترول بمنطقة الزيتية بالسويس ، نتيجة لقذف المنطقة بالقذائف الحارقة الإسرائيلية . وكذلك دور الشرطة فى حرب ١٩٧٣ ، فى الدفاع المدنى وتأمين الجبهة الداخلية ، وخاصة فى معركة السويس الباسلة، عندما حاول العدو الصهيونى اقتحام المدينة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ ، حيث التحمت قوات الشرطة مع أبطالنا من القوات المسلحة وشعب السويس المناضل فى التصدى للعدو ... واستشهد فى تلك المعركة من رجال الشرطة ضابطان و١٣ جندياً.

صمتت انتصار عن الحديث فترة قصيرة ، كانت خلالها تنظر إلى وجوه تلك الزهرات اليانعة ، زال من الوجوه الغضب ، لكن ظلت مسحة من الحزن تكسوها . سألتهن :

. هل تدرين السبب الذى يجعلنى أحكى كل هذا ؟

لم تنتظر منهن إجابة . أجابت هى :

ـ لأننا فى موقف يجب علينا فيه أن يتحد الشعب كله ... كل فئاته من طلبة وأساتذة وضباط وجنود وعمال وفلاحين ... وكل طوائفه.

يدق الجرس معلناً انتهاء الحصة الأولى ، و تتوجه انتصار إلى حجرة مدرسى التاريخ والجغرافيا ، فتجدهم يتحدثون أيضاً عن اشتباكات الأمس .

داخل سور الجامعة ، كان خالد يقف مع صديقه حسان ، وبعض من زملائهما ، يروون لبعض ما شاهده كل منهم من أحداث الأمس، وفى خارج السور كان يقف والده العقيد صلاح مع عدد من الضباط والقوات على أهبة الاستعداد . الحقيقة أن كل من يقف بداخل السور ، وكل من يقف بخارجه ، يتمنون جميعاً فى سرهم ، ألا تعود أحداث ذلك الأمس الكئيب .

فى منزل الجد والجدة ، جلس الجميع بصالة المنزل يقرؤون صحف الصباح جميعها .. إنهم فى العادة يكتفون بجريدة واحدة فقط وهى الأهرام ... أما اليوم فقد اشترى أيمن أربع صحف يومية ... أخذوا يقرؤونها فى نهم ، ثم يتحاورون فيما بينهم عن السبب فى تلك الأحداث ومعرفة من المخطئ .. الشرطة أم الطلبة؟

قال الجد، وهو يرتشف من فنجان القهوة، معقباً على حوارهم :

ـ الخطأ لا يتحمله الطلبة وحدهم .. ولا الشرطة وحدها ... الخطأ خطأ المجتمع كله .. بمؤسساته كلها .. لأننا حتى الآن لم نتعلم كيف نتظاهر .

١٠

فى الفسحة الصغيرة ... بحجرة مدرسى التاريخ والجغرافيا ، جلس المدرسون فى راحتهم يدردشون . فى الماضى كان يسعدهم أن يتحدثوا فى أمور يغلب عليها الطابع الخاص ، فيتحدثون عن أحوالهم الصحية .. عن متاعبهم المهنية .. عن ترقياتهم .. علاواتهم .. عن ارتفاع أسعار السلع . أما الآن ، فمع اعتداءات إسرائيل المتكررة على الشعب الفلسطينى ، وغزوها لمدن وقرى الضفة الغربية ، فقد تبدل حالهم ، حيث أصبحت الأحاديث بينهم ، تدور حول الهم العربى العام .. عن الانتفاضة الفلسطينية وكيفية مواجهة غطرسة إسرائيل ... ثم عن انحياز أمريكا الأعمى لها .

بحزن أخذ الأستاذ حماد ، يحكى عن مشاهداته أمس بالفضائيات ، لما حدث بمخيم جنين ، يصف بإعجاب تلك المقاومة الباسلة لأهالى المخيم ، الذى لم تستطع دبابات شارون وطائراته أن تقتحمه ، إلا بعد ثمانية أيام ، عندما نفذت الذخيرة كلها من رجال المقاومة .

وكيف أن جثث الشهداء ، ما تزال تحت أنقاض المنازل التى فجرها الإسرائيليون بسكانها ، ولم تكتف القوات الإسرائيلية بذلك، بل منعت سيارات الإسعاف من التوجه لإنقاذ المصابين ، حيث يُترك من يُصب من الفلسطينيين جريحاً ، حتى تنزف كل دمائه إلى أن يموت ... يكمل حماد حديثه للمدرسات قائلاُ :

. هل تعرفن أن عدد القتلى تجاوز المئات .. وكذلك المصابين؟ ... إسرائيل كى تخفى جريمتها ، أقامت مقابر جماعية بالجرافات ، دفنت فيها الموتى من الفلسطينيين. رغم احتماء جنودها بالدبابات عند غزوهم لجنين ... فقد قُتِلَ خمسة عشر جندياً منهم .

عقبت انتصار بقولها :

. أعظم ما فى الشعب الفلسطينى ، أن إرادته لا تُكسر ... شعب الجبارين حقاً . لحظة سقوط جنين ، يفجر فلسطينى نفسه أمس داخل اوتوبيس بحيفا ، مكتظ بالجنود الإسرائيليين ، فيقتل ويصيب ٣٠ إسرائيلياً .

قالت وفيّة :

. الإعلام فى أمريكا يدين هذه العمليات ... يسمونها بالعمليات الانتحارية .. يدينونها بشدة لأنها تؤذى المدنيين المسالمين ...

لم يتركها حماد تواصل حديثها .. تحدث معارضاً فى حوار معها قائلاً :

. أمريكا ! .. المفترض أنها آخر من يتكلم أو يدين تلك العمليات الاستشهادية ... هل نسيت أم تتناسى ما فعلته من إلقائها لقنبلتى هيروشيما ونجازاكى الذريتين ؟! ... و راح ضحية ذلك مئات الآلاف من اليابانيين المدنيين المسالمين ... كما تشوه مئات الآلاف الآخرين منهم .

. هى فعلت ذلك بعد عدوان اليابان عليها فى واقعة بيرل هاربر...

.

و ما يفعله الاستشهاديون الفلسطينيون هو نتيجة للعدوان الإسرائيلى على بلادهم ... تنسحب إسرائيل من الأراضى التى تحتلها ، عندئذ ستتوقف العمليات الاستشهادية ... إنهم فى حالة دفاع عن أرضهم وعرضهم .

تدخل إيزيس إلى الحجرة ، وفى يدها بعض الأوراق المتعلقة بالإجراءات المالية ، لتلك المشتروات الخاصة بحفل المدرسة ، لتوقع عليها انتصار ؛ لكونها رئيسة للجنة ، قالت لهم بعد أن حيتهم ، أثناء عرضها الأوراق على انتصار :

ـ المديرة عدلت برنامج الحفل ، ألغت بعض الفقرات ليحل محلها فقرات وطنية عن فلسطين والقدس .

قالت انتصار ، وهى توقع :

ـ معها حق يا إيزيس .

ـ كيف ؟ .. موعد الحفل الثلاثاء القادم .. لا يوجد وقت كاف .

ـ لا ... حماسة التلميذات ستدفعهن لمزيد من التدريب والإتقان .

ثم تسأل انتصار إيزيس :

ـ إيزيس .. هل فكوا الحصار عن كنيسة المهد ؟

ـ لأ .. إسرائيل تطالب المحاصرين فى الكنيسة بالاستسلام ...

ـ موقف رائع من رجال الكنيسة بها سيذكره لهم التاريخ ... فيه يلتحم العنصر الإسلامى والعنصر المسيحى فى مواجهة العدو الإسرائيلى ..
لم أتابع الأحداث أمس جيداً ؛ لانشغالى بمظاهرات الطلبة ، خوفاً على خالد ابنى ، الذى كان قد تأخر عن عودته للمنزل .
ـ قبضت الشرطة أمس على ٤٥ من قيادات الطلبة فى المظاهرة ...
تبين أن من بينهم طالباً مسيحياً .. اسمه يوحنا أيوب .
ـ مرة أخرى الهلال والصليب يتعانقان ، كما حدث من قبل فى ثورة ١٩١٩ ، يحدث الآن فى بيت لحم حيث حصار كنيسة المهد، و فى الشاطبى حيث كانت مظاهرات الطلبة .

تخرج إيزيس من الحجرة ، وقد أدت مهمتها ، بينما يواصل المدرسون أحاديثهم . قالت وفيّة :
ـ ربما قريباً تُحل المشكل الفلسطينية ، سوف يجتمع فى مدريد اليوم وزراء خارجية أمريكا و روسيا و الاتحاد الأوربى والأمين العام للأمم المتحدة ، وبالطبع سيلزمون إسرائيل بسحب قواتها من المدن الفلسطينية .

قال لها حماد وهو يحاورها :
ـ أمريكا غير جادة ... من مصلحتها ألا تحل المشكلة ... حتى يلهث العرب دائماً وراءها ...

هل تدرين يا أخت وفيّة أن شارون صرح أمس فى تحد صارخ للأمم المتحدة بأن الجيش الإسرائيلى لن ينسحب من الأراضى الفلسطينية .. وأنهم سيواصلون حصار كنيسة المهد حتى يستسلم المسلحون الفلسطينيون الذين بداخلها ... يفعل ذلك حتماً برضاء أمريكى على تصرفاته .

ـ أمريكا تدعو الفلسطينيين لمائدة المفاوضات بشرط تركهم العنف أولاً .

ـ يا سيدتى ... حدود الأرض الفلسطينية معروفة ... و ترتضى القيادات الفلسطينية والعربية بحدود الرابع من يونية ١٩٦٧ ، بما فيها القدس الشرقية .. فما هى المشكلة إذن ؟ . إن كانت أمريكا جادة فى إنهاء النزاع ، فلماذا تتلكأ فى الاعتراف بدولة فلسطين؟. لقد اعترفوا من قبل بدولة إسرائيل ، ولم يكن لديها أسس إقامة الدولة وقتها .

ـ ولماذا لا يتم ذلك على المائدة ؟ ما المانع ؟

ـ إنهم يدعون فلسطين إلى المائدة .. ليفترسوها .. ليلتهموها .. لتكون الوليمة الفلسطينية برضاء الضحية .

ـ وضح ؟ .. لا أفهم ؟

ـ لتوقع على نفسها صكاً ... بأن تكون دولة منزوعة السلاح ... سماؤها مستباحة لإسرائيل .. ومياه بحرها حق لإسرائيل ... أليس هذا ما تعلنه إسرائيل وتؤيدها أمريكا عليه كأسس للدولة الفلسطينية المقترحة .

ـ و الحل ؟
ـ ليس أمامنا ـ كعرب ـ إلا عودة الروح لنا مرة أخرى .. و أن نتوحد .. ويصبح الكل فى واحد .. عندئذ سيحترمنا الجميع .. ونستطيع أن نصل لحقوقنا .. من قبل قالها توفيق الحكيم .

تقطع محاسن ـ مدرسة الجغرافيا ـ الصامتة دائماً ، الحوار الدائر بين حماد و وفيّة ، موجهة حديثها لهما :
ـ لا فائدة ... إذا اجتمعتما فى مكان واحد ... فأمريكا و إسرائيل هما محور المناقشة .

ثم توجه سؤالاً إلى كل من بالحجرة :
ـ ألم تنقطع الكهرباء ببيوتكم مساء أمس ؟

أجابها الجميع بالنفى ، أكملت حديثها بأن الكهرباء انقطعت عن بيتها والبيوت المجاورة ، لمدة ثلاث ساعات ، وأنها خشيت على اللحوم والفراخ المجمدة بالثلاجة من الفساد ، ثم أضافت بأنها عاشت تلك الساعات ، على أضواء الشموع ، تماماً كما يعيش عرفات و رفاقه المحاصرون ، بمقره برام الله ، و كما يحيا رهبان كنيسة المهد ، و من معهم من الفلسطينيين ، الذين احتموا بالكنيسة، بعد قطع إسرائيل الكهرباء عنهم .

قال حماد لها ، وهو يبتسم :

ـ لا وجه للتشابه يا سيدتى محاسن ... أنت فى بيتك فى مأمن وتشربين المياه المثلجة ، والأكل متوافر لديك .. أما المحاصرون فى بيت لحم أو فى رام الله .. فالموت قد يقتنصهم بين لحظة وأخرى .. والعدو الغادر يتربص بهم .. بعد أن قطعوا عنهم المياه، والكهرباء ، والإمدادات من الأطعمة .

أضافت انتصار :

ـ سمعت أن العمانيين بمسقط ، قضوا ليلة على أضواء الشموع ، أمام السفارة الفلسطينية ، مشاركة وجدانية لما يتعرض له عرفات من حصار وقطع للكهرباء والماء .

تنتهى الفسحة .. فيكف المدرسون عن الحكى والثرثرة ، ويتوجه بعضهم إلى قاعات الدراسة ، ومن بينهم انتصار .. التى كعادتها دائماً تتحدث عن الهم العربى .. تربط أحداث الماضى والحاضر .. تستخرج منه العبر .. قبيل شرحها للدرس المقرر ، قالت للتلميذات وهى تسير ، بخطواتها الهادئة ، بقاعة الدراسة :

ـ فى الربيع ... تتفتح الزهور ... وتتكاثر الطيور .. تغرد البلابل .. تزقزق العصافير .. تنبت الأوراق الصغيرة بأفرع الأشجار العارية .. يعتدل الجو .. تصفو السماء ..

وتكتسى الأرض ببساط سندسى أخضر بديع .. هكذا الربيع حيث الحياة الحلوة الوادعة .. لكن الأمر يختلف مع حكام إسرائيل .. ففى الربيع تتفتح شهيتهم لرؤية الدماء تسيل .. معظم مجازرهم تمت فى الربيع .. وخير شاهد على ذلك .. مذابحهم التى يرتكبونها الآن بالضفة ، وخاصة فى جنين .. ومن قبل فى دير ياسين .. وببحر البقر .. وفى قانا بلبنان فى أبريل ١٩٩٧ .. كل هذه المجازر وقعت فى الربيع .

ثم تحكى لهن عن المجزرة التى حدثت فى قرية قانا ، حينما أرسل شيمون بيريز طائراته لتقصف المدنيين الآمنين ، دون تمييز حينما كان وزيراً للدفاع .. فقتل العشرات من النساء والأطفال ، وتكومت جثثهم .. هذه المجازر .. لم تُخِف الشعب الفلسطينى ، بل زادته صلابة وإصراراً .

ظهر ذلك اليوم ، تتلقى الحاجة إنعام اتصالاً تليفونياً من شقيقتها إيمان بسوريا ؛ لتطمئن عليها وعلى كل الأهل ، بعد مشاهدتها بشاشات التليفزيون ، الأحداث الدامية ، التى وقعت بالأمس بين الشرطة وطلبة الجامعة بالإسكندرية . تطلب منها الجدة إنعام . برغم تشوقها لرؤيتها . إرجاء حضورها ، فهى لا تطمئن لما سوف يحدث فى الساعات القادمة ، توافق شقيقتها على رأيها ، يتفقان على موعد آخر عقب تأدية نُهى لامتحاناتها . ثم يتبادل أفراد الأسرتين التحية والتمنيات الطيبة لبعضهما البعض . تطلب بعدها الحاجة إنعام من أيمن إبلاغ الفندق بإلغاء الحجز .

بعد قليل ، تتلقى الجدة إنعام اتصالاً تليفونياً آخر ، من أحمد زوج حفيدتها سلوى ، يخبرها أنه و زوجته فى طريقهما الآن لمستشفى الولادة ، حيث تشتد آلام الوضع على سلوى ، التى تحاول الاتصال بوالدتها عن طريق تليفونها المحمول ، الذى تبين أنه مغلق، حيث تغلقه انتصار أثناء عملها بقاعات الدراسة ، تطمئنه الجدة إنعام ، بأن أيمن و زوجته سارة سيلتقيان بهما بالمستشفى .

يسرع أيمن و زوجته إليهما ، بينما ظل الجد بالمنزل مع الحاجة إنعام ليؤانسها ، ولرعاية فيصل وفهد عندما يعودان من المدرسة ، لحين عودة والديهما .

لم يمر وقت طويل إلاّ وكانت انتصار بجوار سلوى ، تشد من أزرها، تطمئنها، تدعو الله فى سرها أن تتم الولادة بطريقة طبيعية. يعودها الطبيب ، يتم الكشف عليها ، يخبرهم بأن الولادة ستتم عصر اليوم بإذن الله. تتحدث سارة عن ولادتها لفيصل وفهد وكيف أن الأم عليها أن تساعد الطبيب المولد لحظة الولادة . القلق والتوتر ينتابان أحمد ، يحاول التظاهر بخلاف ذلك ، يضحك وهو يداعب زوجته :

ـ سلوى ... هل أنت على اتفاقنا ؟ إن كانت بنتاً ... فأنا الذى سأسميها .. أما إن كان ولداً فالنسمية لكِ .

تنظر سلوى له فى حنان .. وتبتسم ابتسامة خافتة .. قائلة :

ـ كما اتفقنا .. ادع لى يا أحمد .. أن أقوم بالسلامة .

يدعو الجميع لها بالصحة والعافية .

قالت انتصار لأحمد :

ـ الحاجة إنعام .. طلبت هى أن تسمى المولود .. سواء أكان ولداً أم بنتاً . طلبت أن يكون الاسم مبدوءً بحرف الألف . ما رأيك ياأحمد ؟

قال أحمد الذى فوجئ بالحديث :

ـ امبراطورية ألف إذن ! . لكن لماذا لم تطلقوا على سلوى اسماً يبدأ بحرف الألف ؟ .. طلبات الحاجة إنعام هى أوامر يجب تنفيذها .. لكن عذراً .. لقد نذرت بينى و بين نفسى .. إن رزقنى الله بنتاً سأسميها آيات .. على اسم الشهيدة الفلسطينية آيات الأخرس .. ابنة الستة عشر ربيعاً .. ضحت بنفسها من أجل حرية وطنها .. صورتها لا تفارقنى .

أنهت سلوى الحديث الدائر بين أحمد و أمها ، بأن أطلقت صرخة ، صمت الجميع بعدها ، وعادت هى لوضع اهتمامهم فقط .

يعود خالد من كليته لمنزل جده ، لم يخبره أحد بأن شقيقته بالمستشفى ، كى يتناول الغداء مع الصغيرين فيصل وفهد ، يلاحظ الجد بأن خالد يضع على كتفيه الغطة الفلسطينية ، متباهياً بها ، قال لجده بأنه اشتراها تعبيراً عن مشاركته وتأييده للمقاومة ، ويحيطه بعدم وقوع اشتباكات اليوم بين الطلبة والشرطة . بعد تناوله الغداء ، يعلم خالد بوجود أخته بالمستشفى ،

فيستعد للذهاب إليها ، بتقبيل جدته مودعاً ، تعطيه الجدة قصاصة صغيرة من الورق ، بها خمسة أسماء لذكور ، وخمسة أسماء أخرى لإناث ، جميعها تبدأ بحرف الألف ، تطلب منه أن يعطيها لأمه ، يودع جده بعدها يسرع للمستشفى .

يطلب الجد من الصغيرين ، وقد فرغا من تناول طعامهما ، أن يذهبا لحجرتهما للنوم كما تعودا . بعد صلاته العصر ، توجه الجد لحجرتهما ، وجدهما يقفان على السرير .. يحاولان إلصاق علم لفلسطين بالحائط ، رسمه فيصل بالألوان المائية على ورقة من كراسة رسم .

يقف الجد للحظات متأملاً ، ما أحدثته الانتفاضة الفلسطينية من آثار ، يحدث نفسه قائلاً فى سره " إنه البعث الجديد للأمة " .

يصل خالد للمستشفى .. يجد سلوى قد دخلت غرفة الولادة .. يلاحظ أن الجميع فى حالة قلق شديد ... تمسك سارة مصحفاً صغيراً تقرأ منه .. بينما انتصار تتمتم بأدعية لله ، ليحفظ وحيدتها و وليدها القادم ، يجلس أيمن بجوار أحمد صامتين ، يقطعان الصمت بكلمات قليلة ، ثم يلوذان بالصمت مرة أخرى ، لا يجد خالد من يتحدث إليه، الكل مشغول عنه ، يتذكر الورقة ، يتجه لأمه ليقدمها لها وهو يخبرها بأن جدته كتبت أسماء للمولود ، ليختاروا اسماً منها ،

تتسلمها منه فى صمت ، تضعها فى جيب فستانها دون أن تقرأ ما بها . تتمنى فى قرارة نفسها أن يكون المولود ذكراً حتى يسموه بحُرِّية كما يريدون ، فهى لا تريد أن تغضب أحمد أو أمها . يزداد الجالسون توتراً ، كلما مر الوقت ، تخرج انتصار بهدوء قصاصة الورق . تقرأ الأسماء بها ، تفاجأ بأن اسم آيات هو أول أسماء الإناث ، ترتاح نفسياً ، يُفتح باب غرفة الولادة ، الأنظار كلها تتجه للممرضة الخارجة منها ، تبتسم لهم قائلة :

ـ مبروك .. بنت جميلة .

تختلط الدموع مع الابتسامات ، تهنئ انتصار زوج ابنتها قائلة :

ـ مبروك يا أبا آيات ...

ثم تسرع بالاتصال بأمها لتطمئنها و تهنئها بمقدم آيات .

قبل أن تحتفل الأسرة بسبوع آيات ، تطلق إدارة جامعة الإسكندرية اسم الشهيد " محمد على السيد السقا " على إحدى الطرقات العريضة الموصلة بين الكليات المختلفة ؛ تخليداً أيضاً لاسم الطالب الشهيد الذى سقط وهو يندد بالاحتلال الإسرائيلى . ويزول الحزن عن الشارع السكندرى بصدور قرار العفو الشامل لكل الطلبة المحبوسين فى تلك المظاهرات .

♦ ♦ ♦

انتهت الرواية ... لكن ملحمة الكفاح و النضال الفلسطينى لا تزال مستمرة .

الفهرست

Contents